
أرض المعركة
عبد الرحمن الشرقاوي

أرض المعركة

بقلم

عبد الرحمن الشرقاوي

الإهداء

إلى وطني...

[أرض المعركة، والمأساة، والأمل!]

عبد الرحمن الشرقاوي

فهرس

مقدمة

نحن في معركة من أجل الحرية...

ومعارك الحرية تعتمد أولاً وقبل كل شيء على الشعوب.. فالشعب دائمًا هو صاحب المصلحة الأولى في الدفاع عن حريته...

ولعل هذه الحقيقة البسيطة لم تجد طريقها بعد إلى نفوس بعض الذين يريدون أن تكون لهم كلمة نافذة في هذا البلد.. فتراهم يحقرون من تاريخ هذا الشعب ويهزأون بمقدراته ويلوون الحقائق ليًا عنيفًا لينتهوا إلى أن شعبنا شعب "وادع".

وهم يريدون "بالوداعة" هنا الاستكانة والخنوع والصبر على الإذلال والمهانة...

ولعل بعض هؤلاء قد حدد موقفه نهائيًا ضد مصلحة الشعب، فهو يريد أن يفرض آراءه ومن ورائها مصالحه بغير طريق الشعب طبعًا..

ولعل بعضهم قد أعجزه القصور عن أن يصل إلى ما كان يبغيه من ثقة المجموع... فشن الحرب على هذا المجموع وراح يتهمه في حاضره وماضيه.. ويحاول أن يرسم له مستقبله على الجو الذي يجب..

ومع ذلك فإن هذا الكتاب لم يصدر لهؤلاء "العباقرة المختارين"، بل يصدر لهذه "الجموع"؛ لي ولك ولأصدقائنا جميعًا، فتاريخنا من حقنا نحن..

وعندما نعرف نحن تاريخنا.. نستطيع أن نلقي منه أضواء على مستقبلنا، فنحدد الهدف الذي نريد، ونعرف الطريق الواضح الذي يؤدي إلى هذا الهدف.

أما عن الكتاب نفسه، فهو كما نرى من عنوانه "قصص من كفاحنا الشعبي". ولن أذكر لك – كما هي العادة في أمثال هذه المقدمات – أن هذا الكتاب فتح جديد في عالم الكتابة، وأنه لاشك سيحدث دويًا في الأوساط الأدبية، إلى آخر هذه العبارات الجوفاء التي تسمع مثلها على أبواب محال "الصاغة" و"بين الصورين"....!!

فالحكم على هذا الكتاب ليس من شأني.. بل هو من شأنك أنت وحدك... وأنت حر في أن تصدر ما تراه من أحكام..

ولكني سأقول لك كلمة عن بعض ما جاء في هذا الكتاب...

***

فقد تعرض المؤلف لفترة من تاريخنا.. هي الفترة التـــي سبقت دخول الحملة الفرنسية إلى مصـــر، وامتـــدت حتـــى وصلت إلى بداية الاحتلال البريطاني.

وبالرغم من أن قصة الكفاح الشعبي لم تبـــدأ فـــي هـــذه الفترة، ولم تنته عندها كذلك... إلا أن هذه السنوات بالـــذات كانت غنية حقًا، غنية حقاً بألوان الكفاح الشعبي في صـــوره المختلفة..

فكان هناك الكفاح الشعبي ضد المستعمر...

وكان هناك الكفاح الشعبي ضد الحاكم المستبد..

وكان هناك الكفاح في سبيل قمة العيش..

ذلك أن في الفترة التي سبقت دخول الحملة الفرنسية إلـــى مصر؛ كان الذي يحكم مصر فعلاً هم جماعات المماليـــك... صحيح أن الخليفة العثماني هو الذي كان له حـــق الســـيادة الرسمية على مصر. ولكن كان هذا الحق لا يتعدى الحـــدود الشكلية وحدها.

وبالرغم من أن المماليك لم يكونوا مصريين في أصولهم، إلا أن حركات المقاومة الشعبية ضدهم لم تأخذ شكل حركات المقاومة ضد المستعمرين؛ فإن طول إقامـــة المماليـــك فـــي

مصر، وما اكتسبوه من عادات أهلها وأخلاقهم ولغتهم؛ جعلهم أقرب إلى المصريين منهم إلى أي شيء آخر، والشيء المهم أنهم لم يكونوا على الإطلاق يعملون لمصلحة دولة أجنبية، فإنهم لم يعرفوا غير مصالحهم الخاصة، فكان وضعهم بالنسبة لجماهير الشعب في مصر وضع الطبقة الحاكمة المستغلة لا أكثر ولا أقل. وعلى هذا فإن ما قام ضدهم من حركات شعبية كان يتسم بطابع الحركات التحريرية الداخلية؛ أي إن هدفها الأول كان وقف الطغيان المحلي.

ذلك أن النظام الاقتصادي الذي فرضه السلطان سليم عند مبدأ الفتح العثماني لمصر؛ هو أن يكون السلطان نفسه هو المالك الوحيد لكل الأراضي المصرية، وليس لصاحب الأرض غير حق الانتفاع بها، أما ملكية الرقبة (أي حق التصرف في هذه الأرض) فهو للسلطان؛ أي للحكومة. غير أن مزاعم السلاطين في تملكهم رقبة الأرض ما لبثت أن تلاشت مع الزمن أمام نفوذ المماليك، فكانوا يتصرفون في الأراضي على نحو ما يشاءون، ويبسطون أيديهم على ما يروق لهم منها، حتى صارت معظم أراضي مصر مقسمة

بينهم، وآلت إليهم بهذه الطريقة ملكية ثلثي ما يــزرع مــن الأراضي، أما الباقي فموزع بين الملتزمين والأوقاف.

ولم يكن للصناعة شأن يذكر في ذلك الحين، أما التجــارة فكانت تحتل مركزًا لا بأس بــه فــي الحيــاة الاقتصــادية المصرية؛ نظرًا لما يتمتع به مركز مصر الجغرافــي مــن مزايا تجارية عديدة؛ وهذا ما جعل للتجار المصريين أهميــة اجتماعية في هذه الفترة من تاريخ مصر، اســتطاعوا مــن خلالها أن يتزعموا أو يوجهوا الحركات الشعبية التي كانــت تنتفض بين الحين والحين، توقف استبداد المماليــك الــذين يملكون معظم الثروة المصرية؛ فقد كانت للتجار مصلحة في وقف هذا الاستبداد الذي كان يؤدي دائمًا إلى عرقلة نشاطهم التجاري.

وقد وجدت الحركات الشعبية في ذلك الحين من جماعــة العلماء حليفًا قويًا، يستطيع التعبير عن حقوقها ورغباتها؛ فقد كانوا قادة الشعب وزعمائه الــروحيين والفكــريين، وكــان أغلبهم من الملاك والأعيان، الذين تتأثر مصــالحهم تــأثرًا مباشــرًا بفوضــى الأداة الحكوميــة، واســتبداد المماليــك الإقطاعيين، وكان لهم من الإلمام بقواعد الشريعة الإسلامية

وتعاليم الإسلام ما يمكنهم؛ بل ويوجب عليهم الحد من طغيان الإقطاعيين، وقد جعلت هذه العوامل مجتمعة من العلماء الزعماء البارزين في معظم الحركات الشعبية التي هبت لمقاومة ظلم المماليك...

ولقد تغيرت طبيعة حركات الكفاح الشعبي بعد أن وصلت الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون... فلم يكن الفرنسيون مصريين أو شرقيين، ولم يكن بينهم وبين المصريين من الصلات غير صلة الاستغلال والإذلال، والمهم أنهم كانوا رسل دولة أجنبية يعملون لتوطيد أقدامها واجتلاب المصالح والأسلاب لها..

إذن فقد كان المصريون على حق في بغضهم وازدرائهم للحملة الفرنسية، مهما قيل من أن حياتهم لم تكن بالحياة السعيدة أو العادية تحت حكم المماليك. وكانوا على حق في مقاومتهم هذه المقاومة الرائعة التي بدت منهم في كل مكان وطئته القوات الفرنسية.

ولم تفلح كافة المحاولات التي بذلها نابليون لاجتذاب الشعب المصري إليه؛ فلا المنشورات، ولا الوعود، ولا الديوان، ولا غير ذلك من الادعاءات؛ أفلحت في التغرير

بعقول المصريين، أو تشويه هذه الحقيقة التي وصلوا إليها بفطرتهم السليمة، وهي أنهم أمام عدو أجنبي لا يجب الاطمئنان إليه، وكل ما يجب هو مقاومته، ومقاومته بشدة وبلا هوادة.

كان هذا الشعور صادقًا وسليمًا وواضحًا لاشك فيه... وقد صادف هذا الشعور من الأسس المادية ما جعله يتبلور ويتركز ويعمق في القلوب والأذهان معًا، وما أدى إلى إيجاد قيادة واعية نشطة..

فقد كان أول ما عمد إليه نابليون عقب استقراره في العاصمة بأيام معدودة؛ أن أخذ في فرض الضرائب وتحصيلها بكل ما يمكن أن يجدي من الوسائل، ولو وصلت إلى القسوة والعنف.

ولم تقتصر هذه المغارم على الأيام الأولى من الاحتلال، بل استمر الفرنسيون في فرض الضرائب وجمع الأموال، ولا سيما بعد أن تحطم أسطولهم في معركة أبو قير، وأصبحت الحملة الفرنسية منقطعة عاجزة عن تلقي الإمداد والمساعدات من فرنسا، متروكة لمواردها وموارد البلاد. فأخذ الفرنسيون من ذلك الخير يتفننون في استخراج الأموال

من البلاد ومن أهلها، وتذرعوا إلى ذلك بوضع النظام الــذي ابتدعوه لإثبات الملكية وتسجيل السندات والعقود، وما تبعــه من فرض الإتاوات الجديدة.

إذن فقد كانت الضرائب منصبة في غالبيتها على طبقــة التجار وأصحاب الصناعات الحرفية؛ فهي لم تمس إلا مــن بعيد طبقات الشعب الفقيرة التي لا تملك شيئًا يمكن أن يؤدى عنه ضريبة، أو تُفرض عليه إتاوة..

ولكن هذه الطبقات الكادحة كانت تكره بطبيعتها وبداهتها الصادقة هذا التدخل الأجنبي السافر، وكانت طبقــة التجــار تشارك بقية طبقات الشعب هذا الشعور الطبيعــي الفطــري، ولكن هذه العوامل المادية الواقعية التي مست مصالحها فــي الصميم، وأقنعتها بأن التدخل الأجنبي لا يمكن أن يقف عنــد حد طعن الكرامة الوطنية والشعور القومي في صميمهما؛ بل يتعداه إلى حد أن يغدو خطرًا يهــدد مصــالحها وحياتهــا.. وهكذا كان شعور هذه الطبقة بخطــر الاســتعمار الأجنبــي شعورًا قويًا واضحًا، وكان شعورها بضرورة الانتقاض على الوضع شعورًا يستند على أسس معنوية ومادية معًا..

لذلك نراها تلعب الدور القيادي في الثورة... فهي أول من يهب لتحريك النفوس.. وهي التي تبذل المال رخيصًا في سبيل الاستمرار بها إلى غايتها..

***

ولكني نسيت أن أحدثك عن مؤلف هذا الكتاب...

وماذا يعنيك من أمر هذا الرجل غير أن تقرأ له فتستمع إلى كلماته تنساب إلى نفسك، فتعرف عنه مباشرة كل ما يمكن أن يعرف رجل عن رجل يرافقه بعض النهار وبعض الليل.. يطلق فيه الحديث مرسلاً في غير كلفة أو جمود أو تصنع... فيضحك إن أراد الضحك، ويسخر إن أراد السخرية، ويبكي إن كان في الحديث ما يدعو إلى بكاء..

وربما تكون قد قرأت بعض ما نشر من قصصه في جريدة "المصري"، وربما تكون قد تتبعت رواية "الأرض" التي تظهر حلقاتها تباعًا في هذه الصحيفة.

وربما تكون قد قرأت بعض ما كتب من فصول وقصص؛ في "المصور"، و"الاثنين"، و"قصص للجميع".

وربما تكون قد قرأت ما كتب من مقالات في مجلة "الكاتب".

ولابد أن تكون قد قرأت قصيدته التي وجهها "من أب مصري إلى الرئيس ترومان".

فأنت إذن تعرف عن "المؤلف" كل ما تريد..

هل ترى يعنيك أن أقول لك إنه ولد في قرية الدلاتون بالمنوفية..؟!

إن أعماله جميعًا تنطق بأنه فلاح عريق في مصريته... وإلا فكيف أمكنه أن يصور هذه العلاقة العميقة التي تربط بين الفلاحين المصريين و"الأرض"... وكيف أمكنه أن يضع هذا الحوار" الأصيل" على ألسنة أبطاله الذين يطلب أن يكونوا من الفلاحين..!؟

أم يعنيك أن أقول لك إنه قد ولد في عام ١٩٢٠..؟!

لاشك أنك أدركت ذلك من كثير مما كتب... فهو قد خرج إلى الوجود، والشعب كله ثائر يريد أن يخرج أيضًا إلى الوجود... ورأى في طفولته وشارك في فتوته كفاح هذا الشعب من أجل الدستور والاستقلال... ولم يترك فرصة تمر في كل ما كتب من فصول أو قصص أو قصائد؛ دون أن

يتحدث عن الكفاح من أجل الدستور، أو "اللائحة" كما سماها الفلاحون بعض الوقت... وعن الكفاح في سبيل الاستقلال...

أم يعنيك أن أقول لك إنه متزوج وله بنت واحدة...؟!

لا شك أيضًا في أنك تعرف هذا... بل وتعرف أن ابنته اسمها "عزة"، فهو قد ذكر لك هذا كله في قصيدته التي وجهها إلى الرئيس ترومان، وذكر فيها عزة وابني وابنك وأبناء أصدقائنا.. فهو لا يحب السلام من أجل عزة وحدها.. بل من أجلنا نحن ومن أجل أبنائنا جميعًا...

أنت إذن لا تريد أن نعرف عن "المؤلف" شيئًا جديدًا... لعلك الآن تسألني.. ومن أنت..؟!

لقد جرت العادة أن يقدم أمثال هذا الكتاب واحد من كبار الكتاب... فيصطنع كثيرًا جدًا من الحلم والتواضع، ويربت على كتف صاحب الكتاب في حركات مسرحية مكشوفة، ثم يقدمه إلى الجمهور..!!

أما هنا.. فواضح جدًا أن الذي يقدم الكتاب ومؤلفه ليس أحدًا من كبار الكتاب.. بل ولا حتى من صغارهم...!!

إنني قارئ يا سيدي... مثلك تمامًا... كل الذي امتزت به أن مؤلف هذا الكتاب (وهو صديق قديم) أطلعني عليه قبل نشره وطبعه.. فأحببت أن أعلق عليه بكلمة..

فكانت هذه المقدمة..!!

ولأدعك الآن أنت وشأنك في هذه القصص من كفاحنا الشعبي.

سعد لبيب

الفأس

ارتفعت الشمس قليلاً في السماء، فرفع ظهره وانتصب متثائبًا، وهو يمسح عرقه بكفه، ثم انطلق يغني... وبدأ الفلاحون يرددون أغنيته الحزينة رتيبة النغمات.

ولأول مرة منذ الصباح شعر الجميع أن بينهم أشياء مشتركة! ودوت في الفضاء صيحة، وفرقعة سياط!.. وقيل: "ممنوع الصياح!"

في الحق إن أحدًا على الإطلاق لم يكن يستطيع الصياح في تلك الأيام!

وجمدت الشفاه على مقطع مثير من الأغنية..

كانت أغنية رائعة من أغاني مصر!..

وعادت حدائق البرتقال ترسل من جديد عطرها الذي ينفذ إلى الأعماق من كل نفس، وماء الكدح الإنساني ما زال يختلط بالتراب، والسياط تقرع الهواء وظهور البشر بأقسى مما تمزق الفئوس وجه الأرض!.. والسيد ما زال يكرر "ممنوع الصياح!"

أما هو فقد عاد يغني، وعاد الفلاحون يرددون أغنيته الحزينة.. كانت الأغنية هي كل ما يملكون من تعبير.. كانت

تتحدث عن مخازن الذرة التي خلت من المحاصيل، وعن الدور التي لم يعد يصيح فيها الدجاج، وعن القرية التي أقفرت من الرجال؛ لأن المحتلين قد أخذوا كل شيء، وحشدوا كل ما في مصر من حيوان وطيور وغذاء لحربهم مع الألمان والأتراك..

الخيول للحرب، وكل الدواب للحرب، والغلال.. وحتى لقمة العيش أخذوها من أفواه الجياع، ولم يكتفوا بذلك بل ساقوا الكثيرين منهم إلى الحرب!..

والحرب، هذا الشيء الوحشي الرهيب؛ لم تكن تعني مصر في أي يوم من الأيام، غير أن مصر في تلك الأيام لم تكن تستطيع أن تقاوم ما يراد لها.. ونحن عندما نشعر بالعجز نلجأ إلى الدموع..

وكان الفلاحون يذرفون هذه الدموع في أغانيهم، ومن خلال هذه الدموع تنهمر اللعنات المريرة على المستعمرين، وتتناوح ذكريات من أبطال الحرية الذين ماتوا وهم يكافحون!..

وعاد الصوت الأجش يصرخ: "يا محمد يا ابن الشيخ عمر اسكت.. قلت لك اسكت.. مالك وما للإنجليز؟!"

ولكن "الشيخ عمر" مات في ثورة "عرابي" بيد إنجليزية.. فلمحمد عند الإنجليز ثأر.. وكثيرون غير "الشيخ عمر" يموتون بيد الإنجليز.. وآلاف من أمثال "محمد" عرفوا الجوع وهم يزرعون للإنجليز خير ما يأكلون.. وخلال الحرب الكبرى عرف الجميع حقًا ماذا يعني بقاء الإنجليز.. ومن قبل الحرب علمتهم دنشواي أشياء ما زالت تحتدم في الحنايا حيث يحتدم الألم، والثأر، والندم، وكل رغبات الانتقام!.

لكل رجل في مصر شأن بالإنجليز، إلا صاحب الصوت الأجش وسيده الذي يملك هذه الأرض بما عليها من حدائق، وبمن عليها من فلاحين!..

إنه هو، وقليلين غيره؛ يبيعون ما تنتج أرض مصر للإنجليز، ويملأون خزائنهم بالذهب، ويلهبون الظهور بعد هذا بالسياط وهم آمنون!.. إن قوة هائلة تحميهم من غضب هؤلاء المعذبين كما حمت آباءهم من قبل عندما قاد عرابي ثورة الفلاحين والمنبوذين في أرض الآباء والأجداد والأحفاد!

ورفع محمد رأسه، ووضع فأسه على كتفه، وهو يقول: "ما لي وما للإنجليز؟!... اسأل سيدك الباشا"... فصاح

الرجل: "اخرس!"... ثم رفع سوطه وهوى به على وجه محمد..!

والتف حول الرجل ثلاثة من الزبانية غلاظ شداد، وأحاط بمحمد كل رفاقه الفلاحين، وكانوا مهزولين شاحبي الوجوه، الفئوس في الأيدي، والأفواه فاغرة، و"محمد" يتلقى ضربات متتابعة من أربعة سياط!..

ولم يهتز "محمد"... وكانت السياط التي تهوي على وجهه وجسده تمر متشابكة أمام عينيه، وتحمل إلى قلبه ما كان يتخيله دائمًا: أرجل الخيل المتشابكة التي سحق تحتها أبوه ومصريون كثيرون في معركة التل الكبير!

إن هذا "الباشا" نفسه هو ابن أحد الذين مهدوا لمأساة "التل الكبير"، والفلاحون يعرفون أنه يحتفظ حول قصره في المدينة القريبة ببعض الجنود الإنجليز الذين يطعمون من كدحهم.. والفلاحون يعرفون أيضًا أن هذا الباشا يموت من الرعب إن بعد عنه الإنجليز!.. فالجميع يكرهونه ويريدون أن يبطشوا به، ولكنهم يذكرون دائمًا رصاص أصحاب الوجوه الحمراء!... والسياط تهوي على وجه "محمد"،

وظهره وكل بدنه، ودمه يسيل تحت الشمس التي أنضـــجت جلده، والتي تسطع منذ القدم على التراب المبارك...

لو أنه فتك بهؤلاء الأتباع الأربعة، فسيجلده الباشا، فلو أنه اعتدى على الباشا لجلده الإنجليز، ولو أنه اعتدى على جندي إنجليزي واحد فسيقتل، وربما جلد أهل القرية جميعًـا حتـى النساء، وقتل من رجالها كثيرون!.

ولكن علام تحرص القرية؟!.. إن الحياة كلهـا لـم تعـد تستحق بعض هذا الهوان.. فهي حلقات تعسة مـن الجـوع والمأساة والموت!..

وبيد متشنجة تتدفع فيها إرادة جيل كامـل مـن المعانـاة والحرمان؛ رفع محمد فأسه وهوى بهـا علـى رأس شـيخ الزبانية، وخر الرجل على الأرض وقد تناثرت خلايا مخـه، وأصبح لدمه على الأرض التي ملأها طويلاً بالصلف؛ مثـل الأديم المتموج من أوراق الزهور الحمراء! وصاح الفلاحون جميعًا: "اضرب يا محمد باسم الله!"... واهتزت الفئوس فـي الهواء، وهوت الأيدي المعروقـة علـى رءوس الزبانيـة.. وسقط رجلان.. أما الثالث فقد طـار!.. وإذ رآه الفلاحـون

يجري، وهو يصرخ انطلقت صـيحاتهم القويـة السـاذجة البيضاء، التي بدأت تتدفق منها الحياة!

***

وعلى سلم القصر الباذخ وقف "الباشـا" يـرتعش، وهـو يصيح: "يا جون انجدني يا جون. الكلاب المسعورة ستأكلني. الفلاحون يا جون قتلوا وكيلي واثنين من أتبـاعي. اذهـب اذهب يا جون. ولكن لا تقتلهم جميعًا. وإلا فمن يعمـل فـي الحقول.! أو اقتلهم كلهم، وسـأجد غيـرهم كلابًـا آخـرين لا يكفرون بالنعمة يا جون!".

وعندما ذهب "جون" يقود عشرة من الجنود الإنجليز على ظهور الخيل؛ كان الفلاحون في طريقهم إلى قصر "الباشـا"، يلوحون بالفئوس في الهواء، وهم يهتفون: "يحيـا العـدل!"، وكانت النسوة والأطفال قد خرجوا وراء الرجال، والجميـع يصرخون: "يسقط الإنجليز".

وبلا كلمة أطلق "جون" الرصاص على الفلاحـين وهـو يسخر، وخاض في الجموع بخيله.. وبدأت الأجساد المهزولة تسقط تحت سنابك الخيل، والرصـاص يحتـرق الصـدور

والرءوس.. وكان الفلاحون يرمون بأبدانهم علـــى الجنـــود، يضربون بالفئوس والحجارة، وينشبون الأظافر في الرقاب!

وهوى اثنان من الجند.. فثالث. وغنم المصريون ثلاثـــة بنادق،! ثم رابع، فخامس.. ثم هوى "جون" نفسه.

وصاح من بقي من الجنود العشرة: "سنهلك جميعًا". ولوى أحدهم عنان جواده يسابق الريح، وتبعـــه الثلاثـــة البـــاقون، فصاح "محمـــد" بأهـــل القريـــة: "لقـــد هربـــوا يـــا أولاد، فلا تضربوهم من الظهر". وأطرق الفلاحون في جلال نبيل، ولكن منظر الضحايا جعلهم يجرون في أثر الهاربين.

ولم يعد أحد من الإنجليز إلى قصر الباشا؛ فقـــد ســـقطوا جميعًا على الأرض التي حسبوا أنهم مالكوها!

ومضت القرية تشيع موتاها وتبكي على الـــذكرى، وفـــي العيون يشرق أحيانًا بريق الانتصار، يضرمه زهو المقدرة!.

***

واختلط عطر البرتقال برائحة الدم.

وأرسل "الباشا" إلى "محمد" يسأله عما يريـــد، ويعـــرض عليه أن يعينه عمدة للقرية، ليعـــود "محمـــد" إلـــى طاعتـــه والإخلاص له، وتعود القرية كما كانت منحنية الظهر.

وضحك "محمد" طويلاً، وقال للرسول إنه لا يريد من الباشا شيئًا، وأن ما يريده لهو أمر لن يفهمه هذا الباشا المسكين، ولئن فهمه فسيجن من الرعب، ولئن كانت القرية قد انحنت يومًا؛ فإنما فعلت ذلك لتلتقط نفسها الضائعة في الطين. وهي لن تنحني بعد.

ومضى الباشا بنفسه إلى القرية يزور قبور الموتى، ويتصدق على ذكراهم.

ورفضت القرية الصدقات، وطالبت "الباشا" أن يتخلى عن حرسه الإنجليز، وأن ينذر أصدقاءه وسادته الإنجليز ألا يحاولوا مرة أخرى اقتحام أرض القرية، التي تضم في أحشائها رفات الذين ذهبوا، وكان "الباشا" يدرك أن حملة إنجليزية قوية لابد أن تقبل ذات يوم لتأديب القرية، ولكنه كان يخشى مع أمله هذا أن يذهب هو نفسه ضحية ثورة القرية..

وكان ما لم يكن منه بد.. فبعد عشرة أيام شهدت القرية حملة إنجليزية من مائة جندي، فتكت بالرجال والنساء والأطفال على السواء... وبحثت عن "محمد" في كل مكان

فلم تجده... وأقامت بالقرية يومًا وبعض يوم، ثم تركتها حطام بيوت، وبقايا رماد من حريق يتمرغ فيه العار!.

ومرة أخرى اندلعت النار من تحت الرماد كما توقع "الباشا"، وكما لم يتوقع الإنجليز!

لم تكن القرية وحدها هذه المرة... وإنما كانت كل قرية في مصر تردد نفس الهتاف: "يحيا العدل.. يسقط الإنجليز!"...

وعاد الجنود يضربون، ولكنهم على أي حال لم يستطيعوا أن يضربوا إلى النهاية، فقد تلقوا كثيرًا من الضربات، وأذعنوا آخر الأمر، وأعطوا الناس في القرى والمدن بعض ما كانوا يريدون!.

ما زال "محمد ابن الشيخ عمر"، يذكر كل هذا الذي حدث منذ أكثر من ثلاثين عامًا..! وإنه ليجلس اليوم في قريته كل مساء يروي للفلاحين كثيرًا من قصص تلك الأيام... ثم يرفع عمامته، ويحك رأسه البيضاء، ويقول لأحد الفلاحين: "أنا كنت في سنك!!"، ويضحك الفتى في طيبة وخجل، ويضطرم وجهه الأصفر بالدم ويقول: "وأنا أقدر؟!".. ثم يضع "محمد" عمامته، وينظر إلى فتى آخر قائلاً: "يا حسن يا ابن خضرة..

أمك كانت أشجع منك!".. ويترحم "حسن" على أمه، ثم يقول: "يا عم الشيخ محمد.. وأنا ما ذنبي؟!"..

لم تعد السياط تنضج الجلود بعد، ولكن الظهور ما تزال منحنية تحت الشمس بلا طائل، وأصحاب الوجوه الحمراء يحتشدون في الصحراء، ويستعبدون الرجال بالمصالح... وعطر البرتقال يفعم نسمات الأرض العزيزة، و"محمد" ما زال يؤمن بأن الفئوس يجب أن ترتفع من جديد..

وفي أعماق كل الفلاحين أمل مبهم، وهتاف صارخ: "متى نرفع الفأس.. أيجب أن نرفع الفأس؟".

ليلة الزفاف

- اسكتي.. اسكتي.. قلت لك اسكتي! اسكتي!

ولكن خديجة لم تسكت، والحق إنها لم تكـــن تســـتطيع أن تسكت وفي معدتها صراخ وجفاف!. وهي بعـــد لا تعـــرف ما توجبه ضرورة الحياة على الأحياء في بعض الأحـــايين، وإنما تنطلق بكل سنواتها الثلاث مخلصة لطفولتها، فتضحك إذا داعبها أحد، وتبكي عندما يلذعها الجـــوع، وتصـــرخ إن لم تجد ما تحب.

وهي على أي حال لا تستطيع أن تذعن لهذا الأمر الـــذي أُلقي على الناس منذ حين، بأن يضحكوا ويفرحوا ويرقصوا؛ لأن "عديلة" ابنة "إبراهيم بك الكبير" ستتزوج!

وكانت الأم تعلم جيدًا أي شر يمكن أن يدهم الـــدار مـــن جديد لو سمع أحد الذين يراقبون تنفيذ الأوامر صراخ هـــذه الطفلة الجائعة. إن أحدًا على الإطلاق لا يستطيع أن يـــدرك ما عانته الأم لتقيم على باب الدار "راية" من الحرير الفـــاخر دليلاً على الابتهاج الصادق بزواج الأميرة.. كمـــا حتمـــت الأوامر!

ولقد تعبت الأم من الطفلة؛ فهي ما برحت تبكي وتطلب الطعام وتسأل عن أبيها الذي تعود أن يحمل لها بعض الحلوى وهو عائد من السوق.

غير أن أباها قد مضى إلى حيث لا يعلم أحد، كما مضى آباء كثيرون غيره. وبعضهم هرب من القاهرة ليستقر في بلد آخر بعيد، وبعضهم تخطفه لصوص الصحراء في الطريق، وكثيرون ينفقون في السجن أيامًا ستطول في الغالب حتى يضع لهم الموت ختام المأساة التي يسمونها الحياة!..

... والطفلة ما زالت تبكي والأم حائرة، فقد ارتحل معظم الجيران، ودور كثيرة في هذا الزقاق من حي "طولون" قد سمرت أبوابها، وفي الزقاق المجاور خطف رجال الشرطة بالأمس فتاة كانت تبكي أباها السجين، ويقال إنها قتلت، ويقال بل ترك الحزن والفقر والذلة لها بقية من حسن تشفع عند رئيس الشرطة!..

إن رئيس الشرطة هذا يلقي الرعب في نفوس النساء والرجال على السواء، فلشغفه بنساء الشعب قصص مخيفة، ومن راقت له من نساء الشعب أهداها إلى مولاه إبراهيم بك، ومولاه يثق فيه ويعتمد عليه في مثل هذه المهمات، ولا يكاد

يوجد في القاهرة كلها رجل واحد يطمئن إلى حياته أو عرضه. وكثيرًا ما يجد الرجل نفسه مضطرًا للاختيار بين واحد من الاثنين؛ العِرض أو العمر! والنساء يعشن في جزع دائم؛ خشية بلاء قد يقع فجأة بلا مناسبة مفهومة. وقد أصبح الجمال نقمة تحاول النساء الحرائر إخفاءه خوفًا من المصير الرهيب!

وعادت من جديد تحاول أن تسكت الصغيرة عبثًا!.. ووضعت يدها على فمها الصغير في رفق لتخفي صوتها وهي تغالب الدموع، إنها هي نفسها لم تذق الطعام منذ يومين، فقد نفد كل ما في الدار، وهي لا تعرف كيف يمكن أن تحصل على الطعام بعد أن غاب زوجها مع الغائبين.

وليس زوجها غير واحد من مئات كانوا يلفقون عيشهم في القاهرة، حتى أصابتهم ضربة الأمير.

***

كان الأمير "إبراهيم بك الكبير" يعد العدة لزفاف ابنته عديلة إلى "إبراهيم بك الصغير". وقد أخذ يشيد للعروسين قصرًا فاخرًا في بركة الفيل، وأحضر صناعًا من الفرنجة ليعدوا للأميرة مركبة أنيقة مزركشة بالذهب الخالص لتنقلها

إلى قصرها الجديد، وبدأ يشرف على إعداد أثاث من أثمن أنواع الخشب، وأرسل إلى التجار الهنود يطلب منهم عقودًا من اللؤلؤ الأصيل، ومئات من التحف المصنوعة من الأحجار الكريمة النادرة، وأمر بأن تكون ملابس الزفاف من الحرير الموشى بخيوط الذهب، وأن ترصع بجواهر لم تحملها امرأة من قبل.

وكانت هذه هي أحلام الأميرة الصغيرة التي فتنت بالترف والعبث الطويل، غير أن ما في خزائن الأرض لم يكن كافيًا لمطالب الغانية العابثة!

وفرض إبراهيم بك على القرى ضرائب جديدة. ولم تكن الضرائب القديمة قد أبقت للفلاح شيئًا، ومع ذلك فقد استخلص الأمير من الريف كل ما يمكن استخلاصه من جائع يموت. وما تزال مطالب الأميرة تحتاج إلى مال!

وأخيرًا فرض على التجار ضرائب فاحشة، وكان بعضهم يترنح تحت وطأة الضرائب القديمة، فأرسل إليه التجار متوسلين أن يعفيهم من هذا البلاء الجديد، ولتقتصد الأميرة قليلاً فيما تريد، لتكن حبات عقدها اللؤلؤية أقل عددًا، لتكن

عربتها مزركشة بالفضة، لتكن جواهر ثيابها متواضعة بعض الشيء..

ولكن الأمير استشاط حنقًا من هذه الجرأة عليه وعلى أحلام ابنته. وأمر رئيس الشرطة أن ينظر في وقاحة العصاة!

وأنذر رئيس الشرطة كبار التجار، فدفعوا إيثارًا للعافية. واستطاع بعض صغار ومتوسطي التجار أن يدفعوا، وبقي بعد ذلك عدد كبير عجز عن الدفع.

وعاد الأمير يهدد العاجزين بأن وقت زفاف "سيدتهم عديلة" قد أزف، ويجب أن يدفعوا ما طلب منهم وهم صاغرون!.، ورد التجار على رسول الأمر بأنهم يقدرون حاجة "عديلة" إلى المال، ولكنهم – مع احترام حلمها بزفاف يشبه ما ترويه الأساطير – يعانون ضيقًا لم تروه الأساطير أبدًا!.. فبعضهم لا يملكون ما يدفعونه، ومنهم من لا يكاد يملك قوت غد أو بعد غد!..

ولكن الأمير صمم على الانتقام من هؤلاء العصاة. وتسامع التجار بما يدبر لهم فبادروا بالهرب والنجاة بأنفسهم بعد أن "سمروا" الحوانيت. وقبض مع هذا على كثيرين،

ونهبت الشرطة الحوانيت والدور، ولم تنس أن تنهب النساء!
وأصبحت القاهرة كلها باكية تهمهم بغضب مكظوم، فما تكاد تمر في شارع حتى تنتقل من بكاء إلى بكاء على إيقاع مرير من الصراخ واللعنات.

وعلى أي حال فقد حصل الأمير على ما يريد من مال، وتم تشييد القصر وإعداد العربة وملابس الزفاف، ولم يبق إلا الاحتفال، والقاهرة تمتلئ بالزفرات، وتنزف منها الجراحات، وفي الريف يموت الناس بلا حساب!

ونظر الأمير في الأمر وأعد له تدبيرًا

أما أهل الريف فليموتوا كما يشاءون فلن يسمع لهم في القاهرة نواح! ولكن هؤلاء الذين يملأون النهار والليل بالحسرات والعويل، من "الغورية" إلى "خان الخليلي"، إلى "طولون"!.. إنهم ليحملون شؤمًا لا نهاية له للأمير الشاب إبراهيم بك الصغير، ويفسدون على عروسه الغانية بهجة الزواج.

وأصدر "إبراهيم بك الكبير" أمره للناس أن يفرحوا ويضحكوا على الرغم من كل شيء، وأن يقيموا الرايات على الدور إعلانًا لابتهاجهم الصادق!

.. ولكن "خديجة" لا تضحك أبدًا"، وهـــي لا تكــف عــن البكاء؛ فالجوع أقوى من أفراح الأميــر وأحـــلام الأميــرة، وأقوى من الصدق، وأقوى من الابتهاج، وأقوى أيضًا من كل أمر..!

وعادت الأم تضع يدها على فم الصغيرة لتخفي صراخها، ولكن بلا طائل.

ودق الباب..

وشددت الأم قبضتها على فم وحيدتها، وقد دهمها ذعــر هائل، وتعالت الدقات على الباب.

وبدأت تضحك لتخفي صوت الطفلة في ضحكاتها هـــي، ضحكت في خوف وعصبية، ويدها تتشنج على فم الطفلـــة، وحملت الطفلة وأخفتها وراء ظهرها وهي جالسة معلقة العين بالباب، وما زالت تضحك وتضحك ويدها تضغط على كــل وجه الطفلة!

وتحطم الباب، وامتلأت الدار برجال الشرطة، وقد التمعت تحت مشاعلهم عشرات الخناجر والسيوف، ومقابض السياط.

وفي تلك اللحظة بالذات كانت الصغيرة قد كفت عن البكاء تمامًا.

ونظر رئيس الشرطة في وجه المرأة التي كانت ما تزال جالسة ويدها خلف ظهرها تضغط على وجه الطفلة، وقال:

- من هنا يبكي في ليلة زفاف الأميرة؟

- أبدًا أبدًا.. أنا أضحك، نحن نضحك! والنبي!.

وهوى سوط حاد على جسدها، فاهتزت من الألم وتقلص وجهها، وأغمضت عينيها وهي تنتصب واقفة وقد تراجعت إلى الوراء متعثرة بالطفلة الملقاة على الأرض.

وهوى سوط آخر عليها فلم تستطع أن تصرخ، ووضعت وجهها في يديها المتشنجتين، واهتز بدنها تحت ثوبها الذي تمزق من فوق كتفها البارز العظام.

وتحت خفق المشاعل لاح صدرها رجراجًا، طيبًا، فاتن السمرة!.. وأشار رئيس الشرطة إلى رجاله أن ينصرفوا، وفتل شاربه الضخم، والتمعت عيناه في وجهه الأحمر المنتفح، وتقدم بكل جسده المتكرش الطويل في خطوات ثابتة منتصرة، وأخذ ينظر في صدرها وجسدها.. كانت في الثامنة عشرة، ذات وجه عادي لوحه الهزال، ولكن بدنها ما زال يحتفظ خلال فتنته السمراء بذلك الخصب الذي يتدفق في الأجساد المصرية.

ولم يعد أحد في القاهرة يبكي بصوت مسـموع، وكانـت الزغاريد والأنغام تملأ السماء، أما الأرض فقد استطاعت أن تخفي مآسيها إلى حين!

وخرجت الأميرة من قصر أبيها في عربة غريبة يخطف لونها الأبصار، والأعلام ترفرف على مشـارف القصـور، والبيوت الفقيرة والحوانيت.

وتجمع في أركان الطرقات بعض الناس يشهدون موكـب الأميرة، يتقدمه العلماء وكبار التجار والأعيان، ويروون في همس حانق قصص فضائح الأميرة.

وقال رجل لصاحبه:

هل الدين يرضى عن هـذا؟ انظـر.. العلمـاء يمشـون بأقدامهم الطاهرة أمام عربة!..

اسكت يا شيخ.. إن لك أولادًا صغارًا.

يا عم الرازق هو ربنا.

واختفت همسات الحنق في وسوسة الحريـر والـذهب، وغبار الموكب العظيم.

واستقر الموكب في القصر الجديد؛ حيث مدت الموائـد، ودارت الخمر فـي كئـوس الـذهب والفضـة، وانسـابت

الراقصات الشركسيات، وتناثر الذهب على الأجساد المرمرية التي تتلوى تحت أضواء المشاعل الحمراء، عارية صارخة الفتنة.

وودعت الأميرة العروس أحد عشاقها العديدين بقبلة خاطفة مختلسة من وراء حجاب، ولمحها أحد كبار التجار فاستعاذ بالله!

وبرزت للناس في ثيابها الخاطفة الفاخرة، وفي عقد من اللؤلؤ الخالص باهر المنظر. وقال أحد العلماء لصاحبه:

إن الله لا يرضى بحضورنا هنا!

وحاول أن ينهض وهو يقول: "إن حبات هذا العقد ليست غير ذوب دموع شعب جائع".

ورد عليه صاحبه: "نعم نعم، صهرها عذاب طويل، وانتظمت عقدًا تلهو به غانية في حفل شياطين.. إنها ليست دموعًا بل دماء! دماء شعب منكوب".

وأقبل عليهما إبراهيم بك الكبير وهما يتناجيان فزف إليهما بشرى طيبة كان يدخرها لكبار الملاك؛ فسيعفي العلماء منهم خاصة من بعض الضرائب.

وضحك الشيخان، ولم يتحدثا في ليلتهما تلك عن دموع الشعب، أو الشياطين أو الدماء!

وكلما تقدم الليل دارت الخمر بالرءوس، وكان الأمراء يغازلون نساء بعضهم، أو نساء الأعيان، والأعيان يغازلون نساء الأمراء. وفي منحنيات حديقة القصر ودروب الحريم السرية كان الرجال والنساء يتسللون، اثنين اثنين!.

وإبراهيم بك الكبير يروح ويغدو يحيي الضيوف مترنحًا من السكر، ويسأل العلماء! عن رضا الله ورضا العلماء!.. وما أكثر ما شبع في تلك الليلة من الرضا..

وبينما كانت إحدى نسائه تعود من مغامرة في الحريم، واجهته مع مملوك شاب في بعض الخلوات، فصفعته وانصرفت إلى مغامرة جديدة مع شاب آخر، وانصرف الرجل الكبير إلى تحية الضيوف، لا سيما العلماء؛ ليتأكد من رضا الله..

وحاول أن يغازل امرأة تاجر كبير، ولكنها لم تحفل به. فقد كان هناك برغم كل شيء نساء منيعات.. ولم يستطع أن ينال تقديرها.. فصاح يستنجد برئيس الشرطة صاحب الحذق الخاص في هذه الأمور ليقوم بدوره الخالد.

ولكن رئيس الشرطة لم يمثل بين يدي مولاه، وانتبه الأمير الكبير فجأة إلى أن رجله قد تخلف عن الاحتفال، فأمر بعض رجاله في سخرية وصلف أن يبحثوا عنه عند إحدى النساء المصريات.

وكان رئيس الشرطة فعلاً عند "إحدى النساء المصريات". ولكن جثة تنهش فيها العفونة وسط بركة من الدماء النجسة، و"إحدى النساء المصريات" ما برحت تطعنه بخنجر صغير في كل مكان من جسمه!.

وذهل الجنود مما رأوا، وحاولوا أن يقبضوا على المرأة، ولكنها كانت تطعن كل من يدنو منها، وأخيرًا ألقتها ضربة سيف على أرض الغرفة، وقد ظلت تضحك حتى فرغت لآخر مرة من الضحك والبكاء.

كان رئيس الشرطة منذ قليل يركل "خديجة" بعيدًا عن أمها، وهو يحاول أن يجذب الأم إلى أحضانه الكريهة، وركعت الأم لتحمل ابنتها، ولكنها وجدتها باردة كاليأس، شاحبة كالحياة في تلك الأيام، فأخذت تحركها وتناديها في حزن هائل مخيف خانق، وإذ ذاك أحست بشارب الرجل يلمس خدها، وقد التفت يده الثقيلة حول صدرها!

ليس ثمة ما يخيفها الآن كأخريات سقطن خوفًا أو طمعًا، لا زوج ولا أب، ولا ولد يمكن أن تهدد بقتله أو سجنه، والذهب، كل ذهب الأرض لا يغريها، وإنها لتحتقر من أعماق نفسها أن تكون محظية الأمير نفسه، وكل ما تعرفه الساعة أنها فقدت زوجها وابنتها، وأنها قد تفقد حياتها، ولكنها لن تفقد شرفها أبدًا بعد ذلك.

وفي لحظة من تلك اللحظات التي تولد فيها الخوارق، نزعت خنجر الرجل، وانقضت عليه تطعنه بكل عنف النفس الإنسانية التي تثأر لآلاف... وسقط الرجل يخور في الدماء كخنزير، وظلت هي تطعن وتضحك وتطعن، وكأنما تمارس لأول مرة إحساسًا بالإنسانية الممتازة، التي تستطيع أن تذود عن العرض والمقدسات البشرية!...

وقال بعضهم إن أم خديجة كانت قد أصبحت مجنونة تمامًا عندما قتلت رئيس الشرطة، الذي ترتعد من ذكر اسمه قلوب أقوى الرجال!..

ربما... ولكن نساء كثيرات من بعدها تعودن أن يصنعن مثلما صنعت، واليقين أنهن جميعًا عاقلات!..

وعلى أي حال كانت هذه الليلة هي آخر عهد الأمراء بالأفراح والسهرات الصاخبة المطمئنة والليالي الملاح!..

ولم تكد تمضي أعوام قلائل على هذه الليلة؛ حتى كان العقلاء من الرجال والنساء يصنعون بدولة الأمراء نفس ما صنعته أم خديجة... وعادوا جميعًا يضحكون كأعقل ما يضحك العقلاء الضاحكون.

عندما يريد الشعب

أقبلوا مع الفجر؛ على الوجوه ظلمات الليل المنهزم، وفي الأعماق منهم يشرق أمل شاحب كشعاع اليوم الجديد.. كان السفر الطويل قد لوحهم، وقوس منهم الظهور، بعد أن عصرت الحادثة قلوبهم الواجفة النبضات.. أما الرجال فقد غرسوا عصيهم في الأرض، واتكأوا عليها، ونظراتهم معلقة على باب الشيخ... بينما جلست النسوة القرفصاء يهدهدن الأطفال، ويشتبكن في أحاديث تتقطع فجأة لتسقط الدموع مثقلة بالزفرات!.

إن "الشيخ محمود" الذي عاش ستين عامًا مرفوع الرأس؛ لا يعرف الآن أين يضع وجهه، فقد خطفت ابنته.. وهو لا يكاد ينظر إلى باب "الشيخ الكبير" حتى يرد بصره في الجموع المنتظرة، فيدهمه الألم والخجل من جديد، ويغلق عينيه على حسرات!

و"زينب" لا تستطيع أن تمسك دموعها، وهي تجلس بين النساء منكسة الرأس بلا كلمة، وكأنما فقدت صوتها تمامًا. إنها لتنسى كل ما عرفته أعوامها الستة عشر من محن..

تنسى الجوع والعذاب والموت نفسه، ولكنها لن تنسى أبدًا تلك الليلة الهائلة!.

كان الليل يلقي بظلاله الرهيبة على آماد لا نهاية لها من الأرض الطيبة الخضراء، التي لم تعد طيبة ولا خضراء... وكانت القرية النائمة في أحضان الظلال المرتعدة، تسمع من بعيد عواء الذئاب الجائعة، فيغوص الأطفال في أحضان أمهاتهم ويلتصقون بها، ومن بيت الحاكم دوت قرعات السياط مختلطة بمواجع الرجال... وتقلبت "زينب" في فراشها الخشن وتحسست كيانها الرقيق الأعجف... ودهمها خوف مبهم.. وفجأة وجدت عدة رجال يمسكون بها. انتزع أحدهم قرطها الأصفر فأدمى أذنيها. وبادرت بإعطائهم كل حليها الزائفة التي بدت لهم كالذهب.. فقد سمعت العذراء الصغيرة من الذين يكبرونها أنهم عندما يقبلون ينتزعون كل شيء.. منحتهم كل شيء لعلهم يذهبون.. ولكنهم لم يذهبوا .. فقد بقي في العذراء شيء ينتزع!...

وعندما أفاقت تمنت لو أنهم نزعوا حياتها وانتهى الأمر! وخرجت تولول وتعثرت بأمها الكهلة الحسناء وأبيها وأخويها.. كانوا في صحن الدار راقدين في سكون مخيف

جامد، ولا حركة فيهم على الإطـــلاق غيـــر دمـــاء تتـــدفق بلا حساب. ولم تجد في الدار شيئًا آخر... ســـكت الـــدجاج واختفى الأوز حتى البقرة.. ولا حياة!

وعائشة كزينب، وزينب كخديجة، وأم السعد كالأخريات، وللشيخ علوان نفس فاجعة الشيخ محمود، وحسنين كعمـــر، وعمر كأحمد، وأحمد كالآخرين... قصص كثيرة متشـــابهة عن المال المغتصب والشرف المهدر والزرايـــة، والهـــوان، والعار، وكل ما يفجر من أعماق النفس بكـــاءً تغـــص بـــه الصدور ولا تتنفس به الدموع!

إنها لعنة صبها قدر غاشم على تلك القرية مـــن مديريـــة الشرقية، فتسلط عليها أتباع "الألفي بك"...هبطوا إلى قصـــر حاكم القرية ذات مساء يطلبون المال لسيدهم.

وفي الحق إن "الألفي بك" كان يعاني حاجة ملحـــة إلـــى المال، وقد كاد الضيق يذهب بعقله. ذلك أنه اشترى حـــديثاً مجموعة كبيرة من المماليك الصغار، واشترى معهم خمـــس فتيات من الشركسيات الباهرات الفتنة، ولقد أغـــدق علـــيهن الثياب والجواهر، وأعطى لكل واحدة منهن قصرًا، وبقيـــت منهن واحدة بلا قصر. ولقد بدأ حبها يغزو قلبه، وأخذت هي

بدورها تتدلل عليه. إنه يريد أن يحتفل بإحدى ليالي العمر مع هذه الجارية المتمنعة في قصر جديد، تحلى جدرانه الرسوم المذهبة، وتنبثق من نافوراته المرمرية مياه النيل المصفاة.

لا بد من مال، هكذا أراد الأمير. ولا يسأل الأمراء عما يفعلون، وكذلك أتباعهم لا يسألون.

ومضى الأتباع يجبون من القرية ما فرضها عليها الأمير. ولم يكن في القرية رجل واحد يستطيع أن يدفع درهمًا فائضًا، وقد عرفت القرية من قبل كيف يموت الإنسان من الجوع.

وعبثًا حاول حاكم القرية أن يشرح لأتباع الأمير، فقد جمعوا الرجال في ساحة القصر، وانهالوا عليهم بالسياط، وطافوا بدور القرية يقتلون من تخلف من الرجال، ويخطفون ويغتصبون كل ما يعثرون به؛ أدوات نحاسية، طيور، ومواشٍ، وحلي، وملابس.. والعذارى الصغار، ومن راق لهم من النساء!

ومضوا عن القرية بأسلابهم يتضاحكون.

ولم تكد القرية تستقبل الصباح بعد تلك الليلة المشئومة، حتى شيعت ضحاياها في إذعان، وبدت القرية كلها كأخوات

لها من قبل؛ خجلى، مطأطئة الرأس، مشبعة بـــروائح الـــذل والهزيمة والدماء.

وصاحت امرأة عجوز: "لماذا لا نشتكي لسيدنا الشيخ؟".

وردت عجوز أخرى: "وهل اشتكى غيرنا؟".

وقاطعها رجل يتحسس ظهره: "اسكتي يا شيخة".

وقال الشيخ محمود: "تعالوا نسافر...".

والتهبت الفكرة في الرءوس، وانتفض الجميع وقد تبـــين كل واحد منهم فجأة أنه فكر في هذا السفر، ولكنـــه خافـــت بالفكر ضميره!

ومضوا جميعًا إلى القاهرة ليعرضوا الأمر على "الشـــيخ عبد الرحمن الشرقاوي"؛ فهو يملك من أرض القرية حصـــة كبيرة، وينبغي له أن يرى رأيه في عدوان "الألفي بك" علـــى أرضه، وعلى أهل قريته..

وقرعوا باب "الشيخ"، وانتظروا.. وبعد حين خرج إلـــيهم مروعًا، فسمع منهم، وأفاضوا له. ولم يســـتطع "الشـــيخ" أن ينتظر حتى يسمع قصص الفظائع، قصة بعد قصة؛ فقد امتلأ حنقًا وغيظًا أن "الألفي بك"؛ يهدر حقوق المالكين، ويستخف بشأن العلماء، ويمشي هو وأتباعه بـــالبغي بـــين عبـــاد الله

الآمنين. يجب أن ينتهي الأمراء من هذه السيرة بين الناس، يجب أن يعرفوا أن هناك حقوقًا وحدودًا ونفوسًا بشرية جديرة بالاحترام.

وهكذا مضى الشيخ مغضبًا، لا يكاد من فرط غضبه يرى أحدًا.. وطرق باب "مراد بك"، فروى له كل ما حدث، وسأله إن كان هذا يرضيه؟ وخرج "مراد بك " بصمته عن لا ونعم... فطالبه الشيخ أن يعطيه موثقًا من الله عن نفسه وعن بقية الأمراء؛ ألا يمشوا في الأرض بعد اليوم مفسدين، وأن يكفوا عن فرض الضرائب. وهنا خرج "مراد بك" عن صمته، وقال: "لا!".. قالها عريضة متغطرسة آمرة، ونهض مربد الوجه، فانصرف الشيخ.

وذهب إلى "إبراهيم بك" لعله أن يشفى حاجات في الصدر... غير أن "إبراهيم بك" كان في شغل عن الشيخ ومظلمته بمجلس شراب مع جواريه وغلمانه؛ فقال:

– هون عليك يا شيخ عبد الله، فاليوم خمر، وغدًا خمر ومن بعد غد!...

***

عاد "الشيخ" إلى بيته ذاهب الصبر، قليل الحيلــة بعــد أن أنفق يومًا كاملاً يجادل بلا طائل أميــرًا متعجرفًــا، وآخــر ضعيفًا، وكان الذين أقبلوا من الريف لائذين به مــا زالــوا ينتظرون عودته في ساحة بيته، وقد أُطعموا وأخذوا قسـطًا من راحة في ظلال الأشجار.. وقال سائلهم: "ماذا فعلت لنــا يا سيدنا الشيخ؟". وقص عليهم الشيخ ما لقيه من يومه هــذا فصرخ أحد الفتيان: "إذن نضربهم!". وتعالت الصيحات حتى من الأطفال والنساء: "نعم نضربهم.. نحن أقوى منهم... نحن أكثر.. معنا أهل الله في القاهرة.. معنــا الله.. الله معنــا".. فأشار عليهم الشيخ أن يهدأوا، فغدًا أمر، ومن بعد غد!

ولم تكد شمس الغد تشرق حتى كانــت القــاهرة تشــهد عجبًا.. سار الشيخ على رأس موكب ضخم من الفلاحين إلى الأزهر، وانضم إليهم أهل القاهرة وهــم يهتفــون بســقوط الظالمين. وفي الأزهر اجتمع العلماء وأغلقوا عليهم أبــواب الجامع، وتشاوروا طويلاً، ثم أصدروا أمرهم إلى النــاس أن يغلقوا الأسواق والحوانيت، وأن يمتنعوا عن أعمــالهم، وأن يكفوا عن معاملة الأمراء وأتباعهم. ومضى موكب العلمــاء إلى بيت "الشيخ السادات"، ومن ورائهم ألــوف مــن أهــل

القاهرة والريف، في قلب كل منهم أمل كبير أن يزول الكرب الذي يخيم على مصر، وقد سرت طبيعة جديدة في هذه الجموع التي أذعنت طويلاً. ولعل هذه الطبيعة الجديدة التي دبت في الجموع بمثل طبيعة المد في الموج الزاحف، لعلها هي التي سيطرت على العلماء الزعماء، فعلموا الأمراء لأول مرة كيف يخضعون؛ ذلك أن مجلس العلماء لم يكد ينعقد في شرفة "بيت السادات"، حتى تموجت الساحة بالخناجر والسيوف والفئوس والسكاكين، تلوح بها أيدي آلاف من الظامئين إلى الأمن والحرية. وروع "إبراهيم بك" بالزئير المتصاعد، وبمنظر هذه الأيدي الملوحة المتوعدة. كان في منزله المقابل لمنزل "السادات" يرقب من الشرفة هذا التدبير المخيف عبر "بركة الفيل"، فأحس أن كل هذا لا يمكن أن يهمل أو يستخف به، ولئن أهمل فربما ضاعت دولة المماليك إلى آخر الزمان. لقد كان هذا الجمع يبدو له مستعدًا لكل شيء. إنهم هناك خارج منزل "السادات"، يصرخون طالبين رءوس المجرمين، أي شيء يحرصون عليه؟ إنهم مستعدون للقتال حتى الموت.

وترنح "إبراهيم بك" تحت ضغط هذه الأفكار، ثم أسرع فأرسل إليهم "أيوب بك الدفتردار"، وهو رجل ماكر الحديث، واسع الحيلة. وأوشك الناس أن يفتكوا بأيوب بك، غير أن العلماء طلبوا من الناس أن يتركوا رسول إبراهيم بك يدخل بسلام.

ووقف "أيوب بك" والعلماء جالسون. واحتمل هو هذا الموقف الذي لم يشهده من قبل، ولم يكن غيره يستطيع أن يحتمله. فلو أن مثل هذا حدث في يوم سابق لكان خاتمة تعسة لحياة إنسانية!. وبعد أن جمع أيوب بك أعصابه ألقى السلام على العلماء فردوا عليه السلام. وسألهم عما يريدون. فقال الشيخ السادات: "نريد العدل، ورفع الظلم والجور، وإقامة الشرع، وإبطال الحوادث والمكوس التي ابتدعتموها وأحدثتموها".

فقال أيوب بك وكان ما يزال واقفًا: "لا يمكن إجابة هذا كله؛ فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات". فقال له أحد الشيوخ: "إن هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس". وأضاف آخر متعجبًا: "ما الباعث على الإكثار من النفقات

وشراء المماليك؟". ثم قال له واحد منهم: "الأمير لا يكون أميرًا بالأخذ من الناس؛ بل إعطاء الناس".

وشعر "أيوب بك" بأن ملكاته لا تسعفه، فليس لديه الآن ما يقول، وطلب منهم أن يأذنوا له بالانصراف ليبلغ الأمراء بما دار، ثم يعود بالرد.

وانصرف، ولم يعد، وأخذ الشفق الأحمر يصبغ الأفق، ولاحت "بركة الفيل"؛ كأنما هي بركة من الدماء. شاهد إبراهيم بك بعد لحظات موكب العلماء يتحرك على أمواج بشرية تهدر، واستقر الموكب في الجامع الأزهر، وهناك قضى العلماء والناس ليلتهم، وأدرك "إبراهيم بك" أن العاصفة تتجمع لتنقض بالصواعق على الأمراء، فأرسل إلى العلماء يتملقهم، ويبلغهم أنه يؤيدهم، ويعلن استنكاره للمظالم التي وقعت، ويرجو أن يعتبره الشعب الثائر واحدًا من الثائرين.

وأرسل في نفس الوقت إلى "مراد بك" يشرح له الخطر، ويطلب منه أن ينزل من عليائه؛ فقد ثار الذين تحت التراب! فقد جاء دور الذين يقرعون بالسياط لينتقموا لأعراضهم وأموالهم وضحاياهم. وإنهم ليستطيعون اليوم أن يصنعوا

المعجزة!. إنهم التجار، وأصحاب الحرف والصنائع، ومعهم رجال الشارع والفلاحون.

وذعر "مراد بك" من هذا النذير. وعند الذعر يسقط القناع فجأة ليبدو الإنسان الـذي يمـلأ الأرض صـلفًا وضـجيجًا وزحامًا؛ كائنًا آخر، هلوعًا يستجدي! فقد سارع "مراد بـك" فبعث إلى العلماء يسألهم الرضا، واختار منهم أربعة عيـنهم بأسمائهم، والتمس منهم أن يتفضلوا فيقـابلوه بقصـره فـي الجيزة.

واستقبل العلماء الأربعة بترحاب بالغ، وأولم لهم وليمـة فاخرة، وظل يلاطفهم إلى ساعة متأخرة من الليل، ثم رجاهم أن يسعوا في الصلح بينه وبين الشعب، وأنـه ليعـد برفـع المظالم عن الناس، على أن يتنازل العلماء عن جـزء مـن رواتبهم المتأخرة.

وفي الصباح كان الوالي التركي في منزل "إبراهيم بـك". لقد ترك "الباشا" قصره في القلعة بعد ما روعته الأنباء، ودعا الأمراء إلى اجتماعٍ عاجل. إنه يريد أن يحتفظ بمصر لتركيا، وليحكمها أمراء المماليك كما يشاءون، على ألا يبلغ ظلمهـم للناس إلى الحد الذي يهدد بالانتقاض عليهم، وضياع الأمـر

من يدهم، وبالتالي ضياع ما يؤدون إلى تركيا من جزية. وبعد أن حضر جميع الأمراء؛ أرسل "الباشا" في طلب العلماء، فاختاروا خمسة منهم، وحاول الناس أن يمضوا وراءهم إلى مكان الاجتماع، ولكن العلماء آثروا أن يذهبوا منفردين، فطلبوا إلى الناس أن يتفرقوا، ولكنهم عادوا فأحاطوا بالقصر ينتظرون.

وأخذ "الباشا" والأمراء يجادلون "الشيخ السادات"، و"السيد النقيب"، و"الشيخ الشرقاوي"، و"الشيخ البكري"، و"الشيخ الأمير". وطال الجدال، وسمع الأمراء كلامًا لم يسمعوه من قبل. كان العلماء يعددون لهم مظالمهم، والجماهير خارج القصر تتوعد الظالمين!

ولأول مرة في تاريخ مصر الحديث كتب دستور؛ فقد تم الصلح، وكتب القاضي "حجة" وقعها الأمراء... وهذه الحجة هي في الحق دستور للحكم.. وجاء في "الحجة" أن الأمراء "تابوا ورجعوا، والتزموا بما شرطه العلماء".. وتعهد الأمراء بدفع سبعمائة وخمسين كيسًا من النقود كتعويض لمنكوبي عدوانهم، على أن يصرفوا الغلال، "وأموال الرزق"، وعلى أن يرفعوا المظالم، ويلغوا الضرائب المستحدثة، و"أن يكفوا

أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس، وأن يسيروا في الناس سيرة حسنة"، وعلى هذه "الحجة" وقع الباشا... وبتوقيع الأمراء، وبتوقيع الوالي؛ أصبحت "الحجة" دستورًا ملزمًا..

وخرج العلماء من الاجتماع فتلقاهم الناس مستبشرين، وقد علموا بكل ما حدث، ومضى كل شيخ وحوله كتلة ضخمة من أهل القاهرة والريف، وقد رفعوا رءوسهم الآن، وسرت في الوجوه إشراقة النصر والأمل، وظلوا ينادون: "جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية"..!

وفتحت الأسواق.. وعاد الناس إلى أعمالهم فرحين!!

شعاع الفجر

لم يكن يعرف ما يصنع بشبابه، ولا بكل حياتـــه.. ! إنـــه ينفق أيامًا باهرة من الفتوة والبطالة والغزل، ولكنه مع ذلـــك يشعر دائمًا أنه وحيد بلا أصدقاء... وفي بعـــض الأحـــايين يلح عليه إحساس مرهق بالتعاسة..

لا صديق!... والمودات التي تملأ حياته يشتهيها بذهبـــه، ويمسكها عليه طمع الذين حوله، أو خـــوفهم.. لكـــم ترهقـــه ثروته الفاحشة، وإن كان دائمًا يطلب المزيد...

وفي الحق إن أيامه كانت عجيبة علـــى الـــدوام.. فمنـــذ عشرين عامًا كان يحيا في هذا القصر طفـــلاً جمـــيلاً فـــي العاشرة بين رجال فاسدين.. وكان يجد فـــوق كفايتـــه مـــن الطعام والراحة والمتاع... وكانت الدنيا إذ ذاك تقوم ولا تقعد أبدًا حين يبطئ النوم عن عينيه قليلاً، أو حين لا تهجـــم بـــه شهيته السمحة على ألوان الطعام جميعًا!

لم يجد في أي يوم رجلاً أو امرأة يقول له: "لا تفعل هذا"، أو: "افعل ذاك"... ولم يتعود أن يفكـــر فـــي شـــيء علـــى الإطلاق، فكل شيء ميسر له... ولقد أصبح الآن فتى طويلاً عريضًا ضخمًا، متكرش البطن والأصـــداغ والعواطـــف...

وهو بعد لا يقوى على التفكير، لطــول مـــا اســتغنى عــن التفكير!..

ولكنه الليلة يفكر!.. إنه على الأقل يستطيع أن يدرك أنــه يعاني إحساسًا ممضًا بالسأم والفراغ... ماذا يصنع في هــذه الساعات من الليل؟!.. أيوقد الشموع ويستدعي أحد ظرفــاء القصر؟.. إنه في كل ليلة يصنع نفس الأشياء، ومــا بــرح الندامى والمحظيات يقولون نفس الكلمات المضــحكة التــي شرعت تفقد مقدرتها على الإضحكاك!

وتقلب في فراشه المخملي الوثير، وهو يتأمل – في بلاهة جوفاء – أعمدته الذهبية... وزفر أنفاس الضيق، وعاد يتقلب في فراشه من جديد!...

وسمعت إحدى المحظيات حركة مولاهــا، فخشــيت أن يكون هو الأرق الذي يفسد لياليه منذ حين، وأسرعت إليــه. كانت أجملهن، وكان زوجها هو الآخر أكبر الأتباع!

ونظر إليها الفتى بملل، وهي تحــاول أن تعيــد ترتيــب الوسائد تحت رأسه.،.. وتبرم، ثم قال في صــوت خافــت: "اذهبي". وحاولت أن تلاطفه فصرخ فيها بخشــونة مباغتــة كثور فقد أعصابه: "قلت لك اذهبي.. اذهبي إلى زوجتــي..

إلى زوجك.. إلى الجن الأحمر.. إلـــى أي شـــيء.. اذهبـــي والسلام!".

وكانت تعلم أنها لو توقفت لحظة بعـــد فربمـــا قتلهـــا ... وأسرعت إلى زوجها لتروي له عن أرق مولاهـــا.. وفـــي الطريق إلى حجرة الزوج قابلت أحد أصدقائه، فنســـيت أرق مولاها، ونسيت الزوج أيضًا..!

والفتى السعيد يتقلب في فراشه..

إن خيالات كثيرة تتراءى أمامـــه فـــي الغرفـــة الهامـــدة الظلال.. أشباح تتماوج في طوفان مـــن الـــدم والـــدخان.. صرخات مختنقة في صور عذارى صغيرات هوين أمامـــه من الرعب.. عشرات من الأيدي المعروقـــة تـــرتعش فـــي الظلام محدقة بعنقه، تريد أن تلقيه في أمواج من اللهب!..

وصرخ صرخة مفزعة رجت جنبات القصر، فـــامتلأت الحجرة الفسيحة بالمشاعل والعبيـــد والمحظيـــات، وكبـــار الرجـــال والجنـــود.. وتســـابقت النســـاء – أمـــام أزواجهن – يمسكن بيديه وجبهته، ولكنه انتفض واقفًـــا فـــي فراشه وهو يرتعد، وأمرهم أن يرفعوا الستائر عـــن النوافـــذ ليدخل الهواء.. وتسلل إلى الغرفة المروعة شـــعاع الفجـــر

الهادئ الذي كان قد بدأ يغمر القاهرة في تلـــك الليلـــة مـــن سنة ١٧٩٠ .. وامتدت "الحسينية" من وراء النافذة بـــدورها وحوانيتها ومسجدها وطيبتها، وقبابها التي ترتفع في إصرار، وبدا له الحي آمناً لا يزعجه عن نومه شيء... وزلزله هـــذا الصمت الرهيب الذي يجلل دور الضحايا فصرخ:

– إنهم يتآمرون علي هناك.. اقبضوا عليهم جميعًا.. على كل رجل في الحسينية... خربوا بيوتهم.. اقتلـــوهم قبـــل أن يقتلوني.. سيثأرون لقتلاهم ونسائهم.. أسرعوا .. أسرعوا.. اقبضوا على شيخ المساجد.. إنه مخيف!.. الشيخ أولاً!

وكان دعاء الفجر قد جمع الرجال والفتيان في المســـاجد، ولم يعد في الدور غير النساء والأطفال.. ولم تكـــد الصـــلاة تنتهي حتى جلس شيخ المسجد على منصة يشرح للناس أمور الدين.

وجلسوا في خشوع حول الشيخ، بينما انطلقت من أعماقهم عبر المسجد أفكار كثيرة تبحث في قلق عن خفايا المصير.

إن رجالاً منهم يحملون في القلوب جراحات مـــا تـــزال تدمي وتدمي. وهم لا يستطيعون أن ينصتوا لحديث في أمور الدين، فإن للفجائع التي عانوها لدويًا هائلاً يصم الآذان عـــن

كل صوت، ويحجب عن العيون كل نور؛ هذا رجل نُهب حانوته منذ أسبوع؛ لأنه لم يكن يملك الحلوى "الشعبية" التي طلبتها إحدى المحظيات في ساعة متأخرة من الليل. وهذا الآخر غابت ابنته يومًا في القصر، وعندما عادت لم تكد ترفع رأسها تحت أثقال العار حتى سقطت ميتة. وهذا العجوز الحزين في أقصى المسجد فقد ابنًا في الثلاثين عاد إلى بيته بعد صلاة العشاء، فسمع زوجته تستغيث من مخدعها، ولم يكد يمضي إليها حتى فوجئ بطعنة في الظهر من رجل مختبئ خلف ستار، والجميع يعرفون من هو القاتل، ومن هو الرجل الذي اقتحم المخدع. وهذا التاجر الوقور ما زال يلعن اليوم الذي افتتح فيه متجرًا لعمائم الشيوخ؛ فقد شاء سيد القصر قبيل فجر ليلة من الربيع أن يرى إحدى راقصاته تلبس عمامة شيخ وهي ترقص عارية، فأرسل أتباعه إلى حانوت العمائم المغلق، فحطموه وجلبوا كل ما فيه!... وذاك الفتى الكسيف؛ إنه يخفي سر أخت قتلها!

وانطلق شيخ المسجد يشرح للناس أمور الدين في صوت حزين خاشع، تشيع في نبراته مرارة مبهمة، ولكن أحدهم قاطعه: "قل لنا يا سيدنا الشيخ.. ما رأيك فيما يجري؟"

فأطرق الشيخ قليلاً، ثم أجاب في صوته الجليل وهو يهز رأسه وكل بدنه: **﴿إِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾**... فصاح أحد الفتيان في بأس: "دمرناها تدميرًا؟؟.. وما ذنبنا نحن يا سيدنا الشيخ؟؟". وصاح فتى آخر: "أحمد أغا يدمرنا تدميرًا.. والله أيضًا؟!". واشتعلت قلوب الفتيان بسخط عنيد، ورفض لكل شيء...

وتهدج من أقصى المسجد صوت عجوز: "قل لنا ما العمل مع الوالي أحمد أغا، وأتباعه يا سيدنا الشيخ؟".. وترددت أصوات من هنا وهناك: "ما العمل يا سيدنا الشيخ"؟ "ماذا نعمل؟! .."

وطوى الشيخ كتاب الدين، وانفجر يلعن المصلين جميعًا بلا استثناء.. وانفجرت من أعماقه مرارة منحت صوته الجليل حرارة لاذعة..

ـ يا عباد الله ... أنتم وحدكم المسئولون عما يجري. ما العمل؟ ألا تعرفون ما العمل؟ إن الوالي أحمد أغا يعاملكم كالأغنام. وهو معذور.. إننا لا نسأل الذئب لماذا كان ذئبًا، ولكننا نقاومه ونحطمه! أتفهمون؟ لقد أطمع ضعفكم أحمد أغا

على عصيان الله والفتك بكم. كان أول الأمر يخرج للنـــاس في الصلوات، ولكنه اليوم يقضي كل وقته في المعصية. لقد بدأ بتاجر منكم فسجنه لأنه رفض أن يهب شالاً من الحريـــر لإحدى المحظيات. وسكت التاجر وسكتم جميعًا، فتقدم أحمد خطوة إلى الأمام، ونهب حانوت رجـــل صـــغير. وســـكت الكبار، فأخذ ينهب الكبار، ينهب كل شيء؛ المال، والحرية، والعرض. وانطلق أتباعه يصنعون مثلـــه. وأصـــبح يقـــرب الرجال منه بقدر ما لنسائهم من حظوة، وهكذا أصبحوا كبارًا يتحكمون لمجرد أنهم أزواج نســـاء جمـــيلات متســـامحات، ولا شيء بعد!!. فماذا صنعتم أمام هـــذا الفســـاد يـــا أهـــل الحسينية؟ سكتم، ففسق الذين يسمنون في الوحـــل بنســـائكم، ونهبوا أموالكم، وأهدروا حرياتكم. وأصبح الصـــغير مـــنكم أو الكبير لا يعرف أيعود إلى بيته أم يقبض عليه في بعـــض الطريق؟ ولا يعرف أيجد بيته ما زال قائمًا، أم يجده حطامًـــا وأشلاء، وأنتم وحـــدكم الملومـــون؛ فـــإنكم لتعصـــون الله!! ألم يأمر الله عباده أن يـــدافعوا عـــن أمـــوالهم وأعراضـــهم وحرياتهم؛ فمن مات منهم دون هذا فهو شهيد؟ لقد حرصـــتم على الحياة، وأي حياة. علام تحرص يا حسن؟ وأنت يا معلم

عبد الله؟ أتحرص على الهوان؟ وأنت يا عبد الموجود؛ علام تحرص في حياتك يا زنديق؟ على الجوع؟ وأنت يا شعبان؟ وأنت ؟ وأنت؟ وأنت؟ وأنتم جميعًا؛ علام تحرصون؟ ذوقوا إذن وأنتم صاغرون. كلكم ساخط على نفسه، وكلكم ينتظر رجلاً يبدأ الضربة، فكلكم ذلك الرجل".

ولم يكد الشيخ ينتهي من حديثه حتى سعل ونهض من مجلسه إلى باب المسجد، وهو يجفف عرقه ودموعه. وتصايح الناس: "أفادكم الله يا سيدنا الشيخ". "سنعزلك يا أحمد أغا". "سنحطمك". "الله يرحمك يا أحمد أغا".

خرج كل واحد منهم إلى حانوته أو داره، وفي الأعماق منه عملاق جبار يستطيع أن يخوض النار نفسها، وهو يضحك.

وبعد قليل كانوا في الطريق إلى بيت الشيخ ليبدأوا معه الجهاد الكبير؛ فوجدوا رجال الشرطة الذين عاثوا في الحي فسادًا يحاصرون البيت، وقد اقتحم بعضهم الأبواب ليقبض على الشيخ.

وقذف الناس العزل بأجسادهم وأيديهم على سيوف رجال الشرطة، ودارت المعركة حامية الوطيس، خسرت فيها

الشرطة خمسة من رجالها، وهرب الباقون، بينما امتلأ الميدان أمام باب الشيخ بأجساد الضحايا.

وأطرقت "الحسينية" قليلاً تبكي ضحاياها، ثم اندفعت من خلال الدموع والزئير إلى الأزهر. وانضم الناس من بقية الأحياء إلى جموع الثائرين، وأغلقت الدور والحوانيت، وخرجت النساء وراء الموكب يحملن قطع الأحجار والحديد والنحاس، ويزودن الرجال بالعصي والخناجر والسكاكين، وامتلأت القاهرة كلها بالنذير والوعيد. وأسرع العلماء فاجتمعوا بالناس.

وفي الأزهر قرر المجتمعون أن يعزلوا "الوالي أحمد أغا". ومضى أحد علماء الأزهر إلى إسماعيل بك يبلغه القرار، و"إسماعيل بك" إذ ذاك هو الحاكم الأعلى الذي يعين الولاة على الأحياء والأقاليم. فرفض "إسماعيل بك" أن يعزل أكبر أعوانه "أحمد أغا" إلا إذا عزل "الجداوي بك" شريكه في حكم مصر أكبر أتباعه أيضًا.

وتشاورت "القاهرة"، ثم قررت أن تعزل الولاة جميعًا، فكلهم يسيرون في الأحياء سيرة أحمد أغا في "الحسينية". غير أن "الجداوي بك" أحنقه أن تطالبه القاهرة بهذا، وعبثًا

حاول "إسماعيل بك" أن يقنعه بالخضوع لما يريد أهل القاهرة؛ فقد غادر قصره ساخطًا متوعدًا.

انطلق صوت المؤذن يدعو "القاهرة" إلى صلاة فجر يوم جديد. وكانت "القاهرة" كلها ما زالت مجتمعة في الأزهر، بينما جلس الوالي في حلقة معربدة من رجاله ومحظياته يشربون الخمر، ويدخنون الحشيش. وقالت المحظية الأولى وهي تدني كأسها من فم الوالي:

- ما زال الفقراء والفلاحون مجتمعين في الأزهر منذ أربعة أيام!

فابتسم زوجها وهو يقول: "سنقتلهم جميعًا اليوم. اليوم هو آخر حياتهم!". وطرب الوالي للفكرة، فأسند رأسه على صدر الزوجة الثملة، وقال: "سنمضي نحن الثلاثة؛ أنا وأنت وكبير الشرطة فقط!". فقالت الزوجة: "اقتلوهم، ولكن لا تقتربوا منهم، إن رائحتهم تزكم الأنوف، والحشرات تطير من أجسادهم". وضحك الوالي السكران، وقالت امرأة كبير الشرطة وهي تبعد عن فمها "الشبك" المذهب، وتنظر في دخان الحشيش: "خذوني معكم، إنها فرجة لذيذة".

وضحك الجميع، ثم نهض الوالي ومعه الرجلان.

ومضت الجياد الثلاثة تقعقع بسنابكها أرض "القاهرة" الخاوية. والوالي لا يخفي عجبه لهؤلاء الذين تظاهروا ضده؛ كيف يتوقحون؟!. وشاهد الوالي طفلاً صغيرًا أمام باب منزله، فتوقف وسأله: "لماذا تقف هكذا؟" وقبل أن يجيب الطفل اقتحمه بحصانه، وضج التابعان بالضحك والدم يسيل من فم الطفل الذي كان منذ لحظات يبتسم لشعاع الفجر الجديد. ورفع رئيس الشرطة جثة الغلام بسيفه، وهو يتأمل بإعجاب قطع اللحم البشري التي أخذت تتناثر أمامه.

وكان أهل القاهرة قد فرغوا من صلاة الفجر، وخرجت جموعهم إلى قصر "إسماعيل بك" و"الجداوي بك" لتسمع رأيهما الأخير في قرار العزل...

ورأى الوالي الجموع مقبلة عليه، فملأه فرح وحشي وجرد سيفه... وكذلك فعل التابعان... واندفع أمامه التابع الأول (زوج المحظية الأولى)، وبقي رئيس الشرطة وراءه...

***

ولم يكد التابع الأول يخوض زحام الناس بحصانه وهو يمضي على أجساد حية، ضاربًا بسيفه عن يمين وعن شمال،

حتى انقضت عليه مئات الأيدي بالصفعات والخناجر، وقطع الحديد، وسقط من فوق حصانه... وتقدم رجل مجهول من الناس فركب الحصان، ومضى على جثة التابع الأمين، واندفع، واندفعت الصفوف تطوح بخناجرها في الهواء على الوالي وكبير الشرطة، واستقرت عدة خناجر في جسد رئيس الشرطة فسقط على الأرض، وتقدم رجل مجهول آخر فركب حصانه ومضى على جثته.. واندفع.. واندفعت الجموع!.. من يدري أي الرجلين كان والد الطفل المقتول؟!

أما الوالي فكان قد اختفى تمامًا.. طار بجواده إلى قصر "إسماعيل بك" يسأله الحماية، ويرجوه أن ينقذ رأسه.. والطغاة عندما يسقطون يقرعون الأبواب كالشحاذين!

وصاح رجل من بين الناس: "فلنطارد الوالي إلى قصره!"... واندفعت الجموع إلى قصر الوالي، فتحطمت الأبواب، وامتلأت الردهات بجثث الجنود والضحايا... وأخيرًا سقط القصر...

***

ووجد الناس في أركانه أطيب الطعام والشراب، وأكداسًا من الذهب!. وكان الحقد الهائل يلهب غضبهم وهم يشاهدون

جدران القصر موشاة بالذهب، وخصور المحظيات ونحورهن تلمع بالجواهر النادرة!. واختطف رجل حلية من عنق جارية وهو يقول: "خذوا خذوا.. هذه أموالنا المنهوبة!"... وقضم فتى آخر قطعة من الحلوى، وهو يقول لزميله: "تمتع يا شيخ.. هذا طعام لا نعرفه".. وركل أزهري شاب المحظية الأولى التي كانت كزوجها تضرب الرجال من ظهورهم بخنجر، وهو يقول: "ذهب عهد المحظيات!"

وطعم الجياع كما لم يطعموا من قبل!..

***

ثم تحرك الموكب إلى قصر "إسماعيل بك"، وكان قد جمع أمراء المماليك في قصره، وأقنعهم بأن قصورهم نفسها مهددة بمثل ما حدث لقصر الوالي "أحمد أغا"... وردت الرجفة إلى النفوس بعض التواضع، وحطمت كثيرًا من الصلف والكبرياء، واستقر الرأي على تنفيذ قرارات الأزهر!...

ونزل "إسماعيل بك" ومن ورائه الأمراء يستقبلون الثائرين في أدبٍ جم.. وانحنى "إسماعيل بك"، ولم يكن من

قبل لينحني، وأعلن أن الأمراء يوافقــون علـــى مـــا يـــراه الشعب...

وهلل الناس مستبشرين..

ثم تقدم لعلماء الأزهر الذين كانوا في طليعـــة الثـــائرين، وأشار إلى الوالي الجديد على "الحسينية"، وإلى ولاة الأحياء الأخرى، وسألهم إن كانوا يوافقون عليهم، وكان الولاة جميعًا ينحنون!

***

وتقدم الولاة الجدد في خشـــوع وإذعـــان، فقبلـــوا أيـــدي العلماء...

وقال إسماعيل بك: "يا أسيادنا الشيوخ... لســـنا حكامًـــا، وإنما نحن عبيد فضلكم!"

وفي الحق إنهم في تلك اللحظات كانوا أطوع من العبيد... وعاد الناس إلى بيوتهم راضين ففتحوا الحوانيت... ونامـــت "القاهرة" كأطيب ما تنام المدن الظافرة، وقد التأمت في قلبها بعض الجراحات...

***

وعادت "الحسينية" إلى ركاب الحياة، تعمــل وتضــحك، وتنتظر ما يكون من أمر الوالي الجديد.

والفجر يلوح !

البحث عن عزاء

أممكن هذا يا رب؟. ولكنك يا سيدي النقيب لا تعرف أي آلام أعانيها بلا أمل في العزاء! أنا أعرف كل ما يضطرم في نفسك الرقيقة الرحبة يا سيدي.. أنا أعرف آلامك أيتها الأميرة الطيبة القلب.. غير أني لست أعرف.. غير أنه لم يكمل، وترك الأفكار تحتدم في صدره، وأطرقت هي برأسها الدقيق البديع، وأخذت تصلح عند منبت شعرها الأسود الجميل حافة الشال الحريري الذي يستلقي على كتفيها الشائقتين في ترف محتشم.. ولم يطل هذا الصمت؛ فقد باغته الضيق فانفجر يقول:

– أكان يجب أن تتزوجي مراد بك؟!.. أكان يجب إذن أن تكوني أنت زوجة لمثل هذا الرجل؟!..

وإذ ذاك رفعت على استحياء وجهها الناصع الرائق، وتنهدت!.. وغشي وجهها ندم حزين يائس.. ثم قالت:

– أكان زواجي به حقًا خطيئة تستحق كل هذا العقاب؟ أي عقاب معذِّب أن ندرك فجأة أن أجمل أيام حياتنا لم تكن غير أكذوبة!.. إن قوى العالم جميعًا، حتى الموت نفسه؛

لا تستطيع أن تدخل إلى نفوسنا شيئًا من عزاءٍ أمام مثل هذه الصدمات!

عريضة!.. لكم أعجب أن تكون نفيسة زوجة لمراد بك.

– إننا لنعيش السنوات الطوال إلى جوار هذه الكائنات القوية المتعجرفة التي يصور لنا غرورنا الأنثوي أننا قد امتلكناها، على حين لا سلطان لنا حتى على شهواتها!.. إننا لنعطيها كل حبنا وكل نفوسنا، ونطلعها من أعماقنا على حالنا من الأهواء والنزوات، وعلى ضعفنا البشري، وتختلط منا الانفعالات والأفكار والعرق والأحلام!.. وهكذا تمر بنا الأيام والليالي.. نكون قد قلنا كل شيء، وصنعنا معًا كل شيء.. ثم.. يحدث فجأة شيء رهيب، تنتفض أمامنا حقيقة رهيبة كالصدمة؛ إننا لم نتحد أبدًا، وإننا أنفقنا أجمل أوقات العمر نزيفًا على أعصابنا؛ السعادة والضحكات والمتاع، وإذا كل هذه الأشياء الرائعة التي مُلئت بالنور والزهو والكبرياء؛ لم تكن غير تلفيق وخداع.. أباطيل.. أوهام!! أوهام!!

وانكفأت على مقعدها ترسل الدموع.. فتحرك في مقعده قليلاً وقال في صوت هادئ مشرق:

- وإنك مع ذلك يا سيدتي لتملكين حياتك كلها.. وتملكين مستقبلك على أي حال!.. إننا نستطيع دائمًا أن نجعل من غدنا أجمل لحظات العمر.

- لا تحدثني عن هذا بعد! لست طفلة لتقول لي مثل هذا الكلام!.. ثم عادت تضع رأسها في يديها تبكي، وتركها تبكي.. ولكنها صرخت من أعماق مرارتها:

- أهو يصنع معها الآن نفس الأشياء التي كان يصنعها معي؟ أهكذا يشترونه بجسد امرأة! هذه الجارية الأعجمية التي امتلك عشرات من أمثالها.

من قال لك إنهم قد اشتروه بجارية؟!.. إنك لطيبة القلب يا سيدتي..

ووثبت من مقعدها فارغة الصبر، وهي تقول: "ماذا إذن؟".

ولكن لماذا تجزعين هكذا يا سيدتي؟.. إنك لتملكين الرحمة التي في القلب، والدم الذي في العروق، وكل هذا يستطيع أن يصنع لك العزاء.

- العزاء؟.. ماذا تقول يا سيدي النقيب؟.. ألا ترى؟ انظر ماذا يصنع هذا الرجل الذي منحته حياتي، إنه ليخونها

بلا رحمة... لقد كنت دائمًا أرى من خلال صلفه وبطشه وحماقته إنسانًا نبيلاً عذب النفس!..

لم يكن أبدًا هو ذلك الطاغية الذي كنت تصوره لي، ولم يكن متوحشًا كما كان يحب أن يصور هو نفسه.. كان يعرف الألم، واللذة، والانفعال والدموع. حتى عندما كان يصنع الدموع للآخرين.. وعندما أقبل الفرنسيون عرض نفسه للموت ليحمي بلاده، ولقد أحببته في تلك الأيام أكثر من أي لحظة أخرى.. وكنت فخورة بزوجي الجسور، حتى عندما هزم.. ولكنه اليوم؟ يا إلهي.. أكنت حمقاء مخدوعة إلى هذا الحد؟. إنه اليوم.. انظر إلى أين ينحدر.. إنه يتفق مع الفرنسيين لمجرد أنهم أهدوه جارية أعجمية شقراء، وينسى أنهم يحتلون بلاده.

– بلاده ؟ بلاده هو؟!.. متى كانت مصر بلاده يا سيدتي؟ إنها لم تكن كذلك أبدًا... ولقد قلت لك هذا ألف مرة، ولكنك لا تفهمين يا سيدتي الأميرة!..

إن كل ما يعنيه من هذه البلاد؛ إنما هو أن يبتز من خيراتها ليعيش في ترفه الوحشي الماجن المستبد!... فليقبل الفرنسيون أو الأتراك أو الإنجليز أو الشياطين، من وراء

البحار البعيدة!... إن كل هذا لا يعني مراد بك أو غيره من الأمراء، ما داموا يستطيعون في النهاية أن يملأوا القصور بالجواري، وأن يشربوا الخمر الفاخرة، ويأكلوا في صحافٍ من فضة..! إن أكداس الذهب لا مصر؛ هي وطنهم، وإنهم ليركعون على الوحل نفسه ليلتقطوا منه الذهب! أتفهمين؟ ألم يعرضوا حياتهم لخطر الموت وهم يقاومون الجيش الفرنسي عندما تخيلوا أن جيش الاحتلال سيحرمهم من بعض ما ينعمون به؟.. على أنهم مع ذلك لم يعرضوا حياتهم لخطر ما... فعندما أحدق الخطر، نجوا بأنفسهم، وتركوا القاهرة تتلقى غارة الاحتلال، وتقاوم سلطانه في كل نهار وليل!.. ولكنهم اليوم عندما لوح لهم الجيش المحتل بالذهب؛ أخذوا يشهرون السلاح في وجه قوات الشعب ليحموا قوات الاحتلال! أليس كذلك؟ إنهم يحمون مصالحهم لا الوطن..!

يا سيدتي! .... أتحسبين إذن أنهم يفكرون في حرية الشعب، وأقوات الشعب؟!

أليسوا هم الذين سلبوه القوت، وأرهقوه بالضرائب، وملأوا السجون، وسفكوا الدماء، وأشبعوه نكالاً وتعذيبًا. إن هذه الحرية التي تحسبين أنهم دافعوا عنها في حربهم مع

نابليون لم تكن هي حرية مصر؛ وإنما كانت حريتهم هم في أن يسرقوا طعام الجياع، ويبعثروا المال على الخمر والنساء. حريتهم في أن يخنقوا الوطن ويستغلوا أبناءه كما يشـــاءون. وإن جيش الاحتلال ليستطيع اليوم أن يحمي لهم هذه الحرية أضعاف ما يستطيعون هم أنفسهم، وهم من أجل ذلك ينحنون إلى الأذقان ليلعقوا حذاء المحتل. وكان يذرع أرض الحجرة وهو يصيح ويغلي ويلوح بيديه تمامًا كما لو كـــان يخطـــب الناس.

وفي تلك الأيام كانت القاهرة تضرب بلا انقطاع، وتتلقى الضربات وتترنح لبعض الوقت، ثم ترفع المعول من جديـــد؛ كان الرجال والنساء يقيمون المتاريس، ويسددون الطعنـــات إلى الجيش المحتل، ويهوون تحت الرصـــاص، ويحاســـبون الخونة، وقد تركوا البيوت وأقاموا على ظهـــور الشـــوارع ينامون، ويأكلون ويكافحون، ويتبادلون حراسة المتـــاريس، وكانت القاهرة في تلك الأيام قد صنعت المدافع لأول مرة في تاريخها الحديث؛ صنعها الشعب نفسه فأقام مصنعًا للبـــارود، وأنشأ مصنعًا ليزوده بالسلاح، وكانت البيوت قد خلت مـــن أواني النحاس وقطع الحديد؛ فكل شيء يصهر ليصنع منـــه

السلاح، ولم تكن في كل القاهرة امرأة تتزين بــالحلي؛ فقــد تخلين جميعًا عن كل ما لديهن جميعًا من زينة، ليكون ملكًــا للثورة. كان التجار يوزعون الطعام بلا ثمن على المحاربين، ولم يكن هناك تجار يكسبون من بيع السلع؛ فقد كانت الثورة هي التي تملك كل شــيء؛ الأعصــاب، ونفــوس الأفــراد، وما يقتنون. ومع ذلك فما زالت الثورة في حاجة إلى مــال، ومضى النقيب "السيد عمر مكرم" إلى السيدة نفيسة المراديــة يطلب منها مالاً للثورة.

وكانت السيدة قد تعودت أن تمنع الثورات السابقة.. كثيرًا من المال، غير أنه وجدها متعبة القلب، تفكر فــي زوجهــا الذي ارتمى في أحضان الفرنسيين فجأة، وتبحث وراء خيانته عن إغراء امرأة؟ ولم يكد النقيب ينتهي مــن كلامــه حتــى وقفت السيدة في صمت لا يفصح عن شيء.. وجلل السكون أبهاء القصر الضخم لبعض الوقت.. ومن وراء الأسوار في الطريق الذي تملأه أشعة الشمس، مختلطة بزحــام النــاس؛ كانت أصوات المعركة تهــز الأرض والســماء، وســكون القصر! وتحرك النقيب متفززًا كجواد يريد أن ينطلق، ثم قال في رهبة: "أتسمعين؟ ... صرخات النســاء تخــتلط بزئيــر

الرجال .. الكل في واحد يضربون نفس الضربة من أجل التحرير". وكانت الضجة تقترب من القصر، وتصل إلى سمع السيدة طلقات البارود مختلطة بأصوات... الإنسانية، وأحست السيدة بأن هذا الزحام يجذبها في قوة لا تقاوم كشدة الجذب، لتتموج مع هذا العباب البشري.. ورأى النقيب على وجهها ابتسامة تحاول أن تشيع.. فاستمر يقول:

ــ والنساء أيضًا ... النساء قبل الرجال يا سيدتيّ!. كل امرأة تشعر في أعماقها بأنها يجب أن تعمل لتجعل طفلها يعيش.. ويعيش أسعد مما عاشت هي، والعذارى يندفعن ليصنعن لأنفسهن غدًا آمنًا ممتعًا لا تروعه الدماء، ولا تقتله الحاجة، ولا يفزعه القلق.. ومن هنا يا سيدتي ينبثق العزاء .. العزاء الذي يخلق، والذي يجعل مأساة حاضرنا ليست غير زقاق مظلم مخيف يجب أن نجتازه؛ لنظفر بالفضاء والحرية والنور! والضجيج ما زال يختلط بشعاع النهار خارج أسوار القصر، ويصل إلى سمع السيدة.. وأحست بقلبها يدق، وبأشياء متفاعلة تنبض في كل بدنها الرخيص، حتى لقد أوشكت أن تنسى أن لها بدنًا؛ ففي بعض اللحظات

لا يكاد الإنسان يشعر بكيانه إلا بأنه مجموعة أشياء متفاعلة، وطاقات!...

وفجأة سألته السيدة: "أجئت تطلب مالاً للثائرين؟". فأجاب: "بالضبط.."

ودخلت السيدة، ثم عادت فأعطته صندوقًا... ثم خلعت كل ما على جسدها من حلي وجواهر، وهي تقول: لم يبق لدي بعد شيء أعطيه غير حديد القصر.. وإنكم لتستطيعون أن تأخذوا كل ما في القصر من حديد ونحاس لتصهروه في مصانع السلاح!

وتحرك النقيب عجلاً إلى زحام الثائرين.. ولكنها استوقفته قائلة:

- انتظر، فما زال لدي شيء أعطيه!، ودخلت مسرعة كالدوامة، ثم عادت...عادت، وقد ارتدت ثياب فارس! ... واندفعت إلى الباب تقول:

- فلندخل في زحام الناس! وغير بعيد من القصر كان النهار ما زال ينبض باندفاع السواعد..

وفي ذلك اليوم عرفت السيدة نفيسة كيف تخفي رأسها البديع وراء المتاريس، وكيف ترفعه لتطلق النار.. واختلط

بدنها الرخص بأسماء أخريات من الشعب أبدانهن مهزولة عجفاء... وعرفت كيف تزحف على الترب، وتتقهقر، وتنصب قوامها في الهواء، وتندفع، وتصيح مع الصائحين! وعندما أخذت الشمس تلقي أشباح الغروب على فلول الجيش الفرنسي المتقهقر؛ كانت السيدة نفيسة تعود إلى قصرها وقد اسودت يداها بالبارود، وعفر الدخان وجهها الناصع.. وعلى طول الطريق كانت تفكر فيما يجب أن تصنعه في الثورة من غد؟ وفي الحق إنها تعد متعبة القلب؛ فقد وجدت العزاء!.. كانت تشعر في كل أرجاء نفسها بسعادة لم تعرفها من قبل، وتحس بنشوة من يقبل في حياته على أسعد أيام العمر!

غلام في المقاومة

أرمان. أرأيته يا أرمان؟ إنه لم يزل بعد في العاشرة من عمره؛ وهو شاحب هزيل تتفرع من على بدنه الجاف أطراف دقيقة كالعصي، ولو أنك أمسكت به لخفت أن يتهشم في يدك كعودٍ يابس من البرسيم. ومع ذلك يا صديقي أرمان فإن في عينيه شعاعًا عجيبًا!. يا إلهي إنك لا تستطيع أن تنظر إلى عينيه:

- لماذا تصوره لي هكذا؛ كأنه خرافة تعبر إحدى الأساطير العامرة بالخوارق والمعجزات.

- وإنه لكذلك. إن هذا الصبي المصري لمعجزة يا أرمان، وإنه ليحمل إلى نفسي ريحًا قديمة، مشبعة بعطر القرون الغابرة، وبذكريات من بطولتنا المقدسة، ألا يذكرك هذا الفلاح الصغير بجان دارك؟

- أجل أيها الأبله، وسنحرقه كما أحرق الإنجليز جان دارك!. كانت هي الأخرى ساذجة طاهرة فقيرة، غير أننا لن نترك هذا الغلام ليصبح "جان دارك" أخرى. تظن أن قائدك العزيز يصنع هذا؟؟ إنه..

ولكن زميله قاطعه مبهوتًا:

– أرمان. أجننت؟ لا تتحدث هكذا عن القائد. وسكت "أرمان"، وأخذ يسرح طرفه في حقول الصعيد التي تستلقي تحت سفح الصحراء؛ ثم قال:

– لقد حدثتني عن جان دارك، والمعجزة. إن المعجزة لتنبع من هؤلاء الذين نحصدهم بلا حساب يا أندريه. إن إرادة الحياة تجعلهم يصنعون أشياء تبدو لنا نحن خارقة! نحن؟ أي سخرية! لقد صنعنا بدورنا أشياء خارقة هناك. ولكن الذين قتلوا "روبسبير"، وأرادوا أن يقتلوا الشعب الفرنسي؛ خيل إليهم أنهم يستطيعون أن يقتلوا كل الشعوب، ستحاكمون الغلام المصري اليوم؟ حسنًا، أما أنا فلن أسمح بقتله أبدًا. أتعود مرة أخرى إلى عصور الشهداء والقديسين؟!.

ودهش أندريه، فأقبل على صديقه هامسًا: "يجب أن تكتم نزعاتك هذه يا مجنون. ماذا تريد؟ ألم يعظك مصرع "مارا" و"روبسبير"، وكل زعماء اليسار؟

ولكن أرمان قال له كالهامس: أممكن هذا؟ سنصبغ هذا الأفق كله بالدم، ونزحم هذا الفضاء بالجثث. من يرى يا عزيزي أندريه، ربما استلقيت أنت أو أنا هنا في هذا

المكان إلى آخر الزمان، الرأس هناك .. والجسد ... من يعلم أيضًا لعله يصبح طعامًا لتماسيح النيل، أو لعل قطعه تــوزع بين النهر والوادي.

ولم يجب "أندريه"؛ فقد شعر بانقباض مفاجئ... وظــل أرمان ينظر إلى غير شيء... وكانت أشعة ديسمبر الفــاترة تملأ نفسه بألم هادئ عميق، وشرع يتمتم بأغنية قديمة حزينة من أغاني فرنسا، وعلى مقطع من الأغنية يصور المجاعــة والبؤس.

أخذ "أرمان" يهز رأسه، ثم قال فجأة:

ــ إنك لا تعرف يا أندريه أن لي هناك ولدًا في العاشــرة أيضًا.

ــ لشد ما أتمنى يا أرمان أن أعود إلى فرنســا، لأنفــق ما بقي لي من العمر هادئ البال، ناعمًا بالدفء بين زوجتي وأطفالي.. ولكنها الحرب! لست وحدك يا أرمان.. إننا جميعًا نحن شوقًا إلى الزوجات والأطفال.

ــ وإلى متى يا أندريه هذا الاغتراب الممض؟.. إلى متى نحارب على الرمال تحت وهج الشــمس، وفــي عواصــف الرمل؟ لقد حدثونا أننا سنجد هنا جنات نغتصبها من أهلها في

يسر، ولكن انظر.. كم فقدنا هنا من أصدقائنا! إننا نقبل على القرية وهي آمنة، ونحسبها ستركع تحت أقدامنا فنُتلقى بالويلات، ويصطف الرجال والنساء، ليقذفونا بالسهام والسيوف والصخور، فإذا أعيتنا الحيل أحرقنا القرية على من فيها، ومضينا إلى غيرها لسفك الدماء، ولتلقي الضربات !! لماذا يحدث كل هذا يا صديقي أندريه؟ أهذه هي الحرية التي تنشر أعلامها في الأرض..

- أرمان.. اسكت..

ولم يكن أمام أرمان غير السكوت؛ فقد أقبل جندي يدعو الضابطين إلى مجلس القائد ليشهدا محاكمة الغلام المصري. وفي خيمة القائد وقف الغلام المصري حافي القدم، عاري الرأس، ممزق الثياب.. وكانت ثيابه المهلهلة تكشف عن جسده البرونزي الأعجف، أكثر مما تستر. ومن حول الغلام وقف حراس عديدون، وبنادقهم مصوبة إلى بدنه الضئيل..

أما الغلام فقد كان من القرية التي رست السفن على شاطئها، تحمل فرقة من الجيش الفرنسي. وقد تعود منذ أيام وهو يلعب أمام مسجد القرية أن يسمع الناس يتحدثون بعد الصلاة عن هذا الجيش الذي يزحف بلا توقف، ويرسل على

المدن والقرى كِسَفًا من نار.. ومن هذا المسجد سمع أيضًا أن الأمراء الذين كانوا يحكمون البلاد قد هربوا بما يملكون من ذهب، وبما اغتصبوا من ماشية وقمح وسمن، وسلاح، وكان الناس يحمدون الله كثيرًا لأنه خلصهم من حكم الأمراء، ويدعونه أن يخلصهم من هذا الجيش الزاحف.. فسينتزع منهم ما بقي لهم من طعام!. وظلت تلك القرية من "بني سويف" تجتمع في المسجد لتدبر أمر السلاح.. فلم يكن في القرية كلها بندقية واحدة، وقد جمعت القرية كل ما لديها من فئوس ومعاول وسيوف وخناجر.. ولكن لا بد لكل رجل فيها من بندقية لتصد الفرنسيين. وسأل الغلام أمه عن البندقية؛ ماذا تكون؟ فقالت له: "هي التي قتل بها الأمير خالك في العام الماضي!". وعرفها الصغير؛ فقد شاهد الأمير ينادي خاله ذات صباح ويغلظ له في القول، وعندما رفع خاله رأسه ليتكلم؛ صوب إليه الأمير قطعة داكنة من الخشب والحديد، وغمزها فدوت منها فرقعة مخيفة أزعجت القرية كلها. وانبعثت منها شعلة أحرقت رأس خاله!. لكم تمنى الصغير أن يحمل هو الآخر هذا الشيء ذات يوم ليحرق به رأس الأمير، ولكن الأمير الذي هرب مع غيره من الأمراء؛ حمل

معه كل ما يستطيع من بنادق، والقرية تتوقع في كل نهـــار وليل أن يباغتها الجيش الفرنسي بالهجوم.

وعاشت القرية أيامًا طوالاً تصبح وتمسي، وكل رجل فيها يفكر في طريقة للحصول على بندقية.. وقد رأى الطفل حيرة أبيه، وبات هو نفسه يحلم ببندقية في الليل، فإذا أقبـــل علـــى رفاقه الصغار في الصباح ظل يتحدث، ويلعب، وأمام عينيه تتراقص صورة بندقية.. كبيرة بعرض الأفق! وكان الجـــيش الفرنسي قد اتخذ معسكره على شاطئ النيـــل، وقـــد علمتـــه التجربة ألا يهاجم حتى يستكمل أهبته.. فأقام في انتظار مدد في الطريق.. ويومًا بعد يوم لم يعد الصـــغار فـــي القريـــة يلعبون أمام المسجد، وإنما أخذوا هم أنفسهم يروون لبعضهم ما سمعوه من الآباء والإخوة الكبار؛ فهذا رجل أخذ ما عنده من حديد ونحاس ومضى به إلى حداد القرية، ولكن الحـــداد لم يستطع أن يصنع له بندقية، أما الآخر فقد أفلح معه الحداد، ولكنه في اللحظة الأخيرة أدرك أنه لا يعرف أيـــن يوضـــع الرصاص.. وذات صباح قال الصغير لرفاقه: "تعالوا نتفرج على الجيش".. وخرج الصغار إلى الشاطئ ليـــروا وجـــوه هؤلاء الجنود الذين أقبلوا من بعيد ليســـرقوا مـــنهم الطعـــام

والأرض؟. ثم انحدروا إلى المعسكر خفافًا شاحبين كالثعالب الصغيرة، حتى لاح لهم من بعيد جندي أشقر يغدو ويـــروح بملابسه الزاهية، ونياشينه تسطع تحت وهج الشمس، وفـــي يده بندقية! وعندما رآه الصـــغار ورأوا البندقيـــة؛ غمـــرهم شعور عجيب.. فالتقطوا من الأرض بعض الحصى، وقذفوا بها المعسكر.. ولم يصيبوا الجندي؛ فقد كان أبعد من مرمى أيديهم الصغيرة، غير أن الحصوات وقعت على مقربة منه، فالتفت إليها وتحرك نحوهم.. وذعر الصغار، فأسرعوا إلـــى القرية مهرولين، أما هو فلم يجر معهم؛ وإنما سقط في مكانه واختفى بين أعواد القمح، وظل يرقب الجندي وهـــو يـــروح ويغدو، وقد صمم أن يعود إلى أبيه ومعه بندقية!..

وأخذ الصغير يزحف على الأرض حتى بلغ المعســكر.. واستدار وهو يزحف فأصبح أمام ظهر خيمة.. وهناك إلـــى جانب الخيمة شاهد بعض الجنود يتحـــدثون بلغـــة غريبـــة لم يسمعها من قبل، وهم يتطلعون إلى النيل وقـــد طرحـــوا بنادقهم وراء ظهورهم على الأرض... وإذ وجد الغلام نفسه آخر الأمر وحيدًا أمام عدة بنادق؛ انحنى في خفـــه فـــالتقط واحدة.. وهم بأن يعود إلى أبيه... غير أن البندقية لم تكـــن

خفيفة على الإطلاق، فجرها على الأرض، واندفع بخطوات مثقلة إلى القرية. وشعر الجنود بصوت غريب فالتفتوا إلى الخلف، وأبصروا الغلام يسحب البندقية، ويجري إلى أول الطريق.. وأسرع أحدهم وراءه فلحق به، وحاول انتزاع البندقية من يده، ولكن الغلام تشبث بها، وكأنما تشنجت عليها يداه، وأخيرًا استرد البندقية، وأخذ الغلام إلى القائد... واصطحب معه الترجمان... وعجب القائد لهذا الفتى الصغير، الذي يوشك أن يخر على الأرض من فرط الجوع... وعرض عليه القائد طعامًا فرفض قائلاً إنه لا يقبل طعامًا من هؤلاء الذين يحرقون المدن والقرى في مصر؛ لأن طعامهم كله سموم.

وحاول القائد أن يعرف شيئًا من الغلام.. وظل يستدرجه، ويغريه لعله أن يبوح بأسرار للقرية، ومدى استعدادها لمقاومة الجيش الزاحف. ولكن الصغير ظل صامتًا.. وكان دائمًا يرسل من عينيه الضيقتين نظرات ثابتة تومض بالشرر.

وعقد له القائد في خيمته جلسة محاكمة، فربما كان وراء تصرف الصغير تدبير من كبار.. وسأله القائد: "لماذا صنعت هكذا؟".

ورماه الصغير بنظرته القاسية الملتهبة.. وطافت بذهنه صور المسجد واجتماع أهل القرية فيه، وحيرتهم في البحث عن البنادق!

فأخذ يقلب نظره إلى البنادق في أيدي الجنود من حوله، ولم يجب!. وقال له القائد: "لا تخف.. لماذا صنعت هكذا؟".

فأجاب على الفور: "أنا لا أخاف أحدًا ... هذا أمر الله".

فسأله القائد: "من الذي أمرك بهذا! قل من أمرك".

فقال الصغير ببساطة: "أمر الله".

وهمس "أندريه" في أذن أرمان: "إنه يتحدث تمامًا كجان دارك". فعاد القائد يقول: "قل الحق وإلا قتلك من هو الذي أرسلك إلى هنا؟

فأجاب الصغير هادئ النفس: "إن رأسي بين يديك، فخذها إذا شئت". ونظر الجنود إلى بعضهم ذاهلين، والتفت القائد إلى من حوله، وارتفعت همهمة الدهشة من كل مكان،

واستمر الصغير يقول: "الله هو الذي أرسلني إلى هنا... قلت لك!". ومال القائد على جاره قائلاً:

ــ "لا فائدة ... سيكون خطيرًا عندما يكبر. فلنقتله.

وارتفع صوت "آرمان" حاسمًا جزعًــا: "لا... لا تقتلــوا صغيرًا في العاشرة؛ لأنه يدافع عن وطنه... إننا لنتمنــى أن يدافع أبناؤنا هناك عن الجمهورية بمثل هذا الإصرار!".

وتمتم أحدهم: "سنروي قصة هذا الغلام المصري لأطفالنا في فرنسا ليكون مثلاً أمامهم".

وقال ضابط آخر: "سنخسر كثيرًا لو قتلناه!"

وأصدر القائد حكمه على الصغير أن يجلد ثلاثين جلــدة. ووقفوا كلهم يشهدون التنفيذ .. أما "آرمــان"؛ فقــد أغمــض عينيه ووضع أصابعه في أذنه كيلا يرى ولا يسمع صرخات الصغير ... ولكن الصغير لم يصرخ على الإطلاق ... فقــد ظل يكظم آلامه حتى حملوه إلى خارج المعسكر ... وعندما مست قدماه أرض الحقول في الطريق إلى القرية؛ شعر بمثل اللهب يشتعل في كل ساقيه.. ومضى متثــاقلاً خطــوة بعــد خطوة، وهو يخلف على الأرض في خطــوه قطــرات مــن الدم... ولكنه لم يصرخ ! وإذا دخل القرية غلبته الدموع، ثم

استغرقه بكاء عميق ونشيج حاد ... لقد عاد إلـــى القريـــة، وليس معه بندقية لأبيه.

عندما تسود السكينة

اسكت أنت يا شيخ.. اسكت قلت لك.. ليس من حقك أن تتكلم اليوم يا شيخ مهدي

ــ يا مولانا .. أنا أقصد..

ــ تقصد ماذا؟.. أنت لا تفهم شيئًا مما يجري الآن، اذهب أنت إذا شئت واركع تحت أقدامه، واسأله المغفرة ... قل له كما قلتم جميعًا يا حامي الإسلام والمسلمين!.. هو؟ .. هذا الطاغية الذي أقبل من بلاد بعيدة ليثخن في هذه الأرض، ويسفك فيها الدماء !؟

والتقط مسبحته التي وقعت على سجاد الغرفة، وعاد يتمتم وهو يحرك حباتها، وكل بدنه يرتعش.. لم يغضب "الشيخ السادات" كما غضب في تلك الليلة، ولقد رآه الذين من حوله ينظر إلى السماء، ويدور في الغرفة، ويطأطئ رأسه، ثم يعود فيفتح صدره ويشمخ بجبينه، وهو لا يكاد يعرف ماذا يصنع..

وكانت طلقات المدافع من خارج القصر تزلزل أركانه زلزلة هائلة، وينتهي إليه دويها المخيف مختلطًا بصرخات الرعب، وصيحات النساء، فتسرع أصابعه بتحريك حبات

المسبحة. وأقبل رجل من الخارج يقول في صوت كـالأنين: "لقد سقطت بولاق، والحرائق في كل مكان، وهم يتقدمون!"

وإذ ذاك قال الشيخ مهدي، كأنما هو نفسه الـذي يتقـدم: "انظر يا مولانا ... انظر .. ألم أقل لك .. إن كليبر سـيبتلع القاهرة؟ ... ستسقط تحت أقدامه بلا ريب ... فلنتقدم نحـن إليه إذن لننجو برءوسنا".

فنظر إليه الشيخ السادات في سخرية، وهو يقـول: "أمـا رأسك أنت فلن تسقط يا شيخ مهدي... إن الـرءوس التـي تنحني لا تسقط عادة في معركة الحرية".

ودهم الحرج نفس "الشيخ مهدي"... ورأى أمامه رجـلاً متغطرسًا، ربما قتل بعد قليل، وهو مع ذلك ما يزال يملـك المقدرة على ازدراء السادة الذين يزحفون.. فقال:

ــ "وبعد ! ... وبعد يا مولانا؟ .. أنت لم تشأ من قبل أن ترسل رجلاً منا يطلب معونة أمراء المماليك .. والآن.. !"

فقاطعه الشيخ السادات محنقًا: "معونة المماليـك!. أيهـا الشيخ الذي دار الذهب برأسه. ماذا تقول؟ ألم تصلك أنبـاء سادتك؟. ألم تعلم أن كليبر ومراد قد عقدا بينهما موثقًا، وأن مراد قد أصبح الآن أميرًا على الوجه القبلـي تحـت حكـم

مولاك كليبر؟ وأن مراد الذي وقف معنا ذات يـوم يحـارب الفرنسيين قد انتهى أمره، وعاد كما كان عبدًا لشهواته، فهـو الذي أعان كليبر على حصار القاهرة، وأرسل إليـه الغـلال والمؤن. لقد ظل المحروقي التاجر الوطني يبحث فـي كـل مكان عن غلالٍ يطعم بها أهل القاهرة، ولكن مراد كان قـد حصل على كل شيء، وأرسله إلى الجيش المحاصر. قل لـه يا سيد محروقي أي متاعب لقيت. وقل له شيئًا آخر. قل لـه بكم من الأموال ضحيت في ثورتنا هذه؟ "ألم تعـرف هـذه القصة يا شيخ مهدي؟. ولكنك مغلق القلب!. تعرف أن مراد أرسل إلى كليبر سفينة مملـوءة بالمفرقعـات ليحـرق بهـا القاهرة، ثم تحدثني بعد ذلك عن مراد؟! لقد كان مراد يسومنا العذاب قبل هبوط الفرنسيين، وعندما أقبلوا، جمعنا في بيتـه يسألنا الرأي والنصيحة. لم نقل له شـيئًا إذ ذاك. وتركتنـي أصرخ في أنه هو وغيره من الأمراء مسئولون عـن هـذا الزحف، فقد طالما بطشوا بأهل مصر وزائريها على السواء، وليس من الممكن أن تقاوم القاهرة زحف هذا الجيش، بعد أن عاشت السنوات الطوال تحت وطأة الأمراء، جائعة عاريـة معذبة.. ليس فيها رجل واحد ترك له الأمراء قوة تمكنه من

حمل السلاح!.. أتذكر يا شيخ مهدي.. أتذكر أيضًا عندما انصرفنا من عنده ماذا قلت لك؟ .. ألم أقل لك إننا يجب ألا نعتمد على هؤلاء الأمراء .. إنهم يريدون حماية استغلالهم الوحشي لنا، ولا يعنيهم من أي يدٍ يلتقطون السوط الذي يلهب ظهورنا؛ من تركيا، أو فرنسا، أو الشيطان نفسه؟! ألم أقل لك إننا يجب على اسم الله أن نقف جميعًا في وجه هؤلاء الأمراء، وفي وجه الفرنسيين؟.. ولكنكم عندما سقطت القاهرة ظللتم على اتصالكم بالأمراء، حتى إذا انهزموا ولم يعد لهم بأس؛ ركعتم تحت أقدام نابليون، واشتركتم معه في الديوان؛ أنتم كبار العلماء!.. لم يعظكم ما صنعه الصغار منا، ولم تأخذوا العبرة من هؤلاء الشباب، من العلماء الذين سقطوا في المعركة !.. ألا تزحف عليك أشباح الضحايا لتلطم وجهك الأشيب؟ لقد تمتعتم بالإقطاعات، وأُعفيتم من الضرائب.. مع ذلك فقد ظل الفقراء من العلماء، بعيدين يجترون ألمًا، ويرمقون في صبر مطلع فجر الحرية؟.. أكلتم على مأدبة نابليون، وازددتم ثراء يومًا بعد يوم، بينما كان رجل كالسيد المحروقي، ينفق في إعداد الثورة بلا حساب.. كان يسعه قبل غزو الفرنسيين أن يدفع

ثقلكم ذهبًا، واليوم.. إنك لا تعرف كم أنفق. ولن تفهم هـذا، ولكنكم لا تخجلون!

"ولكنك لست مسئولاً يا شيخ مهدي، إنها خطيئتنا نحـن الذين أشعلنا ثورة القاهرة الأولى.. لقد كان يجب أن نتخلص بضربة واحدة منكم، أيها المتعاونون، ومن نـابليون، ومـن الأمراء المماليك.. ولكننا تركناكم، وتركنا الأمراء.

"وهذا هو حصادنا اليوم!. أما الأمراء فقد بـاع كبيـرهم نفسه لكليبر، وظللتم أنتم تخرجون على الناس كل يوم بكلام مرذول عن الهدوء والسكينة، وطاعة الله! أتجرءون إذن على ذكر طاعة الله؟! أمن طاعة الله أيها الشيخ الضال أن تسكتوا عن المفسدين في الأرض؟ أم من طاعته أن تروا الحرمـات تُستباح، والأطفال يقتلون، ثم تقبلون اليد الملوثـة بالـدماء؟! ما حكم الله في الذي يقتل مئات النفوس البشرية؟ أجب. ولكن ما أبعدكم عن الله يا شيخ!! .. تحدثوا إذن إلى النـاس كمـا تشاءون، فالناس يعرفون من أنتم، ويعرفون أنها هـي هـي المصلحة التي تنطق لا الدين! صفوا جهادنـا بأنـه فتنـة، وازعموا للمستضعفين في الأرض أن إذعانهم هو السكينة!!، ولكنك يا شيخ مهدي أنت وزملاؤك لن تخدعوا الناس شيئًا..

لن تخدعوا إلا شياطينكم التي في الصدور، ومطامعكم في ملء الجيوب والبطون.. انصرف.. انصرف يا شيخ .. فليس من حقك أن تجالس أمثال السيد المحروقي، والشيخ راضي، وهؤلاء الشيوخ الآخرين الذين أخلصوا الدين لله.. لا لكليبر!"..

وانصرف "الشيخ مهدي". وفي الصباح كان "كليبر" يطوف على حصانه شوارع القاهرة، ومن ورائه أتباع مراد بك، وفي طرقات أخرى كان الشيخ مهدي ومعه بعض العلماء يدعون الناس إلى الهدوء.

وفي الحق إن كل شيء كان قد هدأ .. ولقد تعثر الشيخ مهدي في ذلك اليوم بالكثير من أشلاء الأطفال والنساء.. كانت القاهرة البديعة قد استحالت إلى خرائب، وكان الهواء ثقيلاً مشبعًا بعفونة الموتى.. وكان وحل الأرض قانيًا، تتسايل عليه الدماء..

ولم يكد المقام يستقر "بكليبر"، حتى استدعى أركان حربه، وأصدر أوامره إلى الجنود أن يقبضوا على كل العلماء الذين اشتركوا في الثورة. أما "الشيخ مهدي" فلم يجد في هذا الإجراء شيئًا يعترض عليه؛ لأن هؤلاء العلماء حين رفعوا

راية العصيان على "كليبر" قد خالفوا أمر الله!.. وأمر الله منذ كان يسع كل شيء، ويفهمه بعض الناس كما يشتهون.

ولم ينس كليبر أن يقبض على الشيخ "السادات"، ولقد أوصاه "مراد بك" أن يقتله، و"مراد بك" لا ينسى كيف أغلظ له الشيخ يوم أن هجم الفرنسيون على القاهرة، ولكن "كليبر" نفسه لم يكن في حاجة إلى من يذكره "بالشيخ" .. فقد كان من رأيه أن يقتل منذ ثورة القاهرة الأولى، غير أن نابليون لم يوافق.. فسيظل دمه في عنق الجيش الفرنسي إلى آخر الزمان، ولن يسكت الشعب عن الثأر أبدًا..

على أن "كليبر" اعتقل "الشيخ السادات"، وألقاه في كهف سحيق بالقلعة، يشبه كهوف الباستيل.. غير أن الذين حطموا الباستيل بالأمس؛ قد شاءوا أن يقيموا للشعب الفرنسي نفسه ولغيره من شعوب الأرض "باستيلاً" جديدًا في كل مكان!

وانهال الجنود على "الشيخ السادات" بالضرب، حتى لقد كان يفقد الشعور من ألم الضرب.. ولم يجد أحد من العلماء المتعاونين في هذا كله ما يخالف أمر الله. لقد كانوا يناشدون الناس أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة، وألا يوقظوا الفتنة النائمة.. فماذا يريد العلماء بعد؟ إن الناس ليهدأون، وكليبر

يحكم آمنًا الفتنة، وقد استقر عرشه على الجماجم والأطلال.. وفرض على القاهرة غرامات فادحة، ودفع تجار أثرياء كالسيد المحروقي أكثر مما يملكون، وكسب الفرنسيون كثيرًا من هذه الغرامات، وللشيخ المهدي وغيره من العلماء نصيب مما يكسبون!

وبينما كان الشيخ المهدي يكدس الذهب كيسًا فوق كيس؛ كان الجنود الفرنسيون يفدون على السادات فيضربونه، فإذا أفاق جروه إلى داره، حتى إذا اعتقلوا معه زوجته عادوا يضربونه، حتى ليسقط من الإعياء، والزوجة تصرخ وتخمش وجهها.. والجنود يتضاحكون.. والطيبون من العلماء يسألون الله أن يعفو عن روحه الخاطئة، وعن روح غيره من العلماء الذين ضلوا الطريق فقاوموا الفرنسيين.

ولم يطل عذاب "الشيخ السادات"؛ فقد بدأت الفتنة تتحرك، وأخذت الأنقاض في دروب القاهرة تهمهم بالحنق الذي يمسكه الرعب والجزع!

وأفرج عنه.. وأخذ كليبر يرسم المشروعات الواسعة لمصر.. بعد أن اطمأن به المقام، وخيل إليه أنه مقيم بمصر

إلى آخر الزمان؛ فقد أخلد الناس إلى السكينة والهدوء، ومضى الناس يحتملون حياتهم في إذعان وصبر..

ولم يكن في القاهرة كلها إذ ذاك رجل أو امرأة يستطيع أن يرفع صوته بالشكوى، فأفواه القبور والسجون فاغرة، تتلقف من يجاهر بالعصيان.. ومضى كليبر يحلم بمستقبل زاهر في مصر.. ولكنه وفي هذه اللحظة بالذات سقط كليبر.. اغتاله سليمان الحلبي في حديقة قصر القيادة العامة بالأزبكية!

أدفع كليبر رأسه ثمناً لاضطهاد شعب بأسره؟. أدفعه ثمناً لتعذيب الشيخ السادات؟!..

ربما ... غير أن العلماء المتعاونين إذ ذاك لم يعودوا يتحدثون عن الهدوء والسكينة، وعن أمر الله

في الأغلال

"اللعنة على المحتل!.. وليدو الرصاص
تحت نوافذه على الدوام، فليمزق الرعب
بدنه، فلتكن كل أيامه جحيمًا لا يطاق!".
"أسلحة ؟.. فلنغتصب الأسلحة من العدو!..
هيا أيها الرماة الأحرار ... طهروا أرض
الوطن من الخطوات المدنسة، وانقضوا
باللعنات على المحتل!".

"**أراجون**"

دق الأرض بقدميه في غضب هائل، وهو يصيح: "إن شرف الجمهورية في خطر..!".

وحاول الرجال الذين لوح الذعر والتعب وجوههم الحمراء؛ أن يعرفوا ماذا بعد، غير أن قائدهم العظيم "كليبر" ظل يمشي في الغرفة صامتًا..

كان يضطرم حنقًا، وبدنه الفارع يتلوى ويرتعش بسخط مخيف، وساد المكان صمت متوتر، فلم يعد أحد يسمع شيئًا غير الأنفاس واللهثات!

وفجأة انطلق صوت أحد الرجال:

- فلنحرق هذه المدينة يا سيدي الجنرال!

والتفت إليه "كليبر" بازدراء عميق، يحمل كل مرارة حيرته المعذبة. فالإنسانية في تلك الأيام من أواخر القرن الثامن عشر كانت تشمئز من قتل الآمنين الذين يرفعون رءوسهم الحرة في وجه العدوان، وكان المعتدون أنفسهم يرون في هذا التخريب وحشية لا تليق بشرفهم كعسكريين وفرسان.

ولم يجب "كليبر" بكلمة، وظل ينظر إلى عيني الرجل الذي دهمه الخجل، فأخذ يفتح فمه وعينيه في ندم أبله.

وعاد "كليبر" يمشي مثقل الرأس، وهو ينقل نظراته الخاطفة بين وجوه الرجال.. ثم ترك رجاله ينظرون إلى ظهره، وأخذ هو يتأمل هذه المدينة التي تستلقي أمامه بكل جلال القدم، هادئة، راسخة، على الرغم من كل شيء؛ كأنما هي تسخر مما يمر بها من أحداث!

إن الحياة لتمضي بها محملة بذكريات تاريخ طويل، متطلعة إلى أمل عريض مبهم، وهي تغلي، وتضطرب، وتحتدم، وتضحك.. وكأنها تنام ملء الجفون.!

وتهامس الرجال لبعض الوقت، ثم انطلق من بينهم دعاء صارم:

ـــ فلنقبض على كل الرجال.

والتفت "كليبر" بنصف وجهه الذي أطفأ الشحوب نضرته، وقال في صوت حزين مذعن:

ـــ كل الرجال ؟؟ لا يا سادة.. لا!

لقد كان يعلم أكثر من أي رجل آخر، أي مدينة هذه؟! إنها ما تزال تحتفظ في عروقها بحرارة دماء الإسكندر، وبكل بسالته. وإنها لتموت وتحيا، ويجللها غبار النسيان، ولكنها لا تفقد هذه الحرارة أبدًا! وكأن الحضارات قد خلفت لهذه المدينة تراثًا ضخمًا ما يزال يرسب إلى اليوم في النخاع من بدن كل رجل وامرأة وغلام؛ ليلهب منهم عند اللزوم؛ الصلف والكبرياء، والعزيمة التي لا تقاوم.!

وهمس "كليبر" مرة أخرى في إذعان حزين:

ـــ كل الرجال؟ لا.. لا يا سادة!

إنه يعرف أي رجال هؤلاء. أيضًا هم يعرفون!

لقد وقفوا منذ حين بصدورهم العارية، حفاة، مهللين، وفي أيديهم العصي، والبنادق، والفئوس، والسيوف، والخناجر، والسكاكين، وقطع الحديد والأحجار، ليقاوموا بهذا الخليط العجيب من الآلات، وحتى بالأيدي؛ غزو الحملة الفرنسية،

لم تروع المدينة من المدافع التي أرهبت الدنيا وراء البحـــر الأبيض، واندفع كل أهلها إلى جحيم المعركة حتى النساء.

وكانت جبهته تحمل الدليل المؤلم على أن هذه المدينة التي تحرس الشاطئ الإفريقي ليست كالأخريات.. فقد أوشكت أن تلعب بمصيره الذي لم يهتز في معركة أخــرى مــن قبــل، والمعجزة وحدها هي التي أنقذته من الموت!

والجميع يعرفون أن نسوة في المدينة قذفن القائد الباســل "مينو" بحجر ضخم، فهوى من أعلى السور يتلوى من الألم، وضلوعه تتمزق !

وفي معركة الإسكندرية أيضًا مــات الصـــديق الكـــريم الجنرال "ماس"، بعد أن كسب الفخار للجمهورية في ميـــادين أخرى من قبل، وقتل ثلاثمائة آخرون من صـــفوة الضـــباط والجنود، ولم يستطع "بونابرت" أن يواجه حكومته بالحقيقـــة، فزعم أنهم ثلاثون!

والحقيقة إن الإسكندرية أصابت في الصميم سمعة الجيش الفرنسي الذي ترتعد منه كل مدن العالم بلا استثناء!.

ماذا؟ لقد أوشك "بونابرت" نفسه أن يموت!

***

فقط هبط الجنود إلى البر، بعد أن خيل إليهم أن كل شيء هادئ في المدينة.. لم يكن في الطرقات غير قرع الأحذية الثقيلة، وكأن أهل المدينة قد هجروها، وأغلقوا الدور.. وفجأة انهمر من النوافذ طوفان من الرصاص، وكان نابليون يمر في حارة ضيقة لا تكاد تتسع لشخصين، ومن ورائه حرسه، والنار تنصب في عنف من إحدى النوافذ.. وسقط بعض الحراس، وأطلق نابليون الرصاص على النافذة، وتبعه الحرس، وبعد كفاح عنيف قصير تحطم باب المنزل، ووجد الحراس رجلاً وامرأة ينزفان دمًا وهما يحاولان إلقاء آنية من الحديد الثقيل ("الهون") على رأس "نابليون"، ولكن رصاص الحرس أفسد المحاولة .. وهكذا استسلما، ولكن للموت وحده، ونجا "بونابرت"!.

إن "كليبر" كفارس يحتفظ في أعماقه بالإكبار لهذه المدينة الرائعة البطولة!. وهو بعد حائر لا يدري على التحقيق ما يجب أن يكون!

أيقبض على كل الرجال؟ .. فسيبقى النساء، وإنهن ليحاربن بأعنف مما يحارب الصناديد في الجيوش المدربة، ولو قبض على النساء فهناك الصبيان، وهم أيضًا يحملون

السلاح، ويحاربون بالطوب والأظفار! ولـو قـبض علـى الأطفال، فمن يدري؟! ربما تفجرت بالقذائف نفوس بشـرية أخرى من أغوار هذه الصحراء التي تتبسـط وراء المدينـة بالخفاء والرعب والأسرار!.

وتحسس "كليبر" جبهته المثخنة بالجراح، وتنهـد!. ليـت "نابليون" لم يتركه في الإسكندرية إشفاقًا عليه!.

إنه يعاني متاعب لا يحتملها حاكم عسكري!.. فالناس في الإسكندرية لا يتعاملون على أي نحو مع الجـيش المحتـل، وهو يتعذب في كل نهار وليل ليحصل لجنوده علـى المـال والطعام والماء..

وعلى الرغم من أن "بونابرت" قد عقد مع الزعماء الذين غلبوا على أمرهم معاهدة شرف وصداقة وتعاون؛ فما بـرح الناس ينظرون إلى الجيش المحتل كجيش محتـلٍ غاصـب، ولا شيء بعد. لم ينخدع الناس بما أُذيـع علـيهم، مـن أن الفرنسيين أقبلوا ليطهروا الأرض من طغيان الأمراء، وفساد دولتهم..فمصر تريد أن تطهر الأرض حقًا.. ولكن من البلاء المقيم والبلاء الزاحف جميعًا..

والشعب لا يعرف المجاملة؛ فهو يشهر العــداء واضــحًا صارمًا باترًا.. و"كليبر" يصطلي من عداء الناس الذين قرروا أن يقاطعوا الجيش، فمنعوا عنه الطعام والمــاء، وحرمــوا التعامل معه، وشرعوا يقتلون من يكسب المال بالاتجار معه، مصريًا كان أم أجنبيًا من المقيمين في أرض مصر!.

والجيش يتذمر ويتوجع، ويتمنى جنوده أن يعودوا بســلام إلى وطنهم الحبيب؛ ليمارسوا في فرنسا حياة الحرية والإخاء والمساواة، بعيدًا عن فظــائع الحــرب، وخرافــات القــادة والحاكمين التي يسمونها "المجد والبطولة والفخار".

وفي ذلك اليوم من يوليو ســنة ١٧٩٨؛ تلقــى "كليبــر" صفعتين قاسيتين، فأخذ يضطرم من الحنق والحيــرة.. فقــد عثر بعض رجاله على جثة بحــار فرنســي فــي عــرض الطريق، وفي نفس الوقت حملت أمواج البحر جثــة جنــدي موثق بالحبال.

لقد أعلن الفرنسيون أكثر من مرة أنهم لم يدخلوا مصــر ليفسدوا في الأرض ويسفكوا فيها الدماء. وقد ســاروا بــين الناس أطيب السيرة عسى أن تنشأ صلات ومودات. فلمــاذا إذن يقتل المصريون رجلين فرنسيين؟!

وفي عصبية بالغة صاح كليبر في أعوانه:

ــ تكلموا يا سادة.. قولوا شيئًا على الأقل. أنت يا "برويس"، يا من تحسن سياسة الريح والأمواج، وتسيطر على الحيتان في مجاهل الماء. أليس لك رأي؟! وأنت يا صديقي "مانسكور". إنك لم تشهد مني مثل هذه الحيرة في أيامنا القديمة الحرجة.. هل أفلس تفكيرك؟! تكلم!. تكلم أنت يا كريتان.. وأنت، وأنت .. ماذا ترون.. تكلموا يا سادة قولوا شيئًا!!

فقال كريتان في هدوء مفكر: "إنه السيد كريم حاكم المدينة. إنه رجل واسع الحيلة شديد الذكاء.. مخيف!".

فقال كليبر: "سأناقشه الحساب".

وأضاف مانسكور: "أرى أن تدعو الأعيان للتحقيق معهم"..

وقال برويس: "جنرال! لا تنس القاضي الشرعي. ولتكن حليمًا معه رحيمًا به.. إنك عن طريق الدين وحده تستطيع أن تسيطر!.. هذه هي حكمة بونابرت، وحكمتك أنت أيضًا".

فصاح "كليبر" كمن وجد الحل أخيرًا: "هذا حقيقي.. حقيقي يا سادة سأدعوهم جميعًا؛ الحاكم والقاضي والأعيان.. سأناقشهم الحساب.. الحساب!"

وبعد لحظات كانوا مجتمعين عند "كليبر". ودارت مناقشات طويلة حادة ختمها "كليبر" بقراره الحاسم: إنه يعتقل الأعيان كرهائن حتى يقبض حاكم المدينة على المسئولين عن حادثي القتل، وإلا فسيقتل اثنين من الأعيان، يُختاران بالاقتراع..!

وقال "السيد الكريم": "إن المسئولين عن هذا الحادث هم أهل الإسكندرية بأسرهم.. فليقبض إذن على كل الرجال وكل النساء!.. على أن المسئول الأول هو كليبر نفسه؛ لأنه لم يحسن الإشراف على جنوده الذين انطلقوا يستفزون مشاعر الناس!".

ودهش "كليبر" لما يسمع من "السيد كريم".. وقبل أن يفرغ من دهشته علم أن الشعب يتجمع في الخارج مطالبًا برءوس كثيرٍ من الفرنسيين.

كان الناس يعلمون أن اجتماعًا يعقد مع الحاكم العسكري الفرنسي للتحقيق في مقتل الرجلين، وحملت نسمات "يولية"

الساخنة شرارة الغضب الكامن من بيت إلى بيت، وهي تزداد اشتعالاً.. وخرج الجميع يحملــون آلات القتــال، ويعــدون الذخائر من الصخور، وقطع الحديد والســيوف والبــارود. وملأوا أفواه الدروب والحارات والشوارع في انتظار نتيجــة التحقيق، لينقضوا إذا لزم الأمر!.

يجب الإفراج عن الأعيان، ومنع الجنود من الاعتداء على الناس. وتسليم الذين ارتكبوا حوادث سابقة، وأفلتوا من عقاب الناس! وليس في مقتل رجلين اثنين شفاء لما في الصــدور. فمن بين هؤلاء "الفرنجة" الغاصبين من يعامل النــاس كمــا لو كانوا عبيدًا في بعض عصور الرق الرومانية.. كل شيء مباح في مزرعة الرقيق؛ المال، والأعراض على السواء!.

ما الذي يثير الحاكم العسكري إذن؟ فليؤدب رجاله أولاً.. لقد انطلق أحد بحارته فاغتصب خمرًا من حانــة "مــالطي" عجوز، ثم سار في الشارع يتطوح من السكر، فحطم حانوت تاجر مصري وسرق منه عدة أشياء، واعتدى على صــاحب الحانوت وأوشك أن يقتله، فقتله صاحب الحانوت!.. ماذا في هذا؟!.

أما الآخر؛ فقد تسلل وسواد الليل، يترنح إلى خدر امـــرأة في مهمة خاصة! كان خادمًا لضابط جميل.. جميل ما فـــي ذلك ريب .. ربما كان يشغف النساء في بلاده حبًا!.. علـــى أنه قد فُتِن آخر الأمر بفتاة مصـــرية تختـــزن فـــي عينيهـــا وجسدها كل أسرار البحر والصحراء والآلهة!.

***

وفي تلك الأيام لم يكن في الإسكندرية نســـاء مصـــريات يرحبن بالمحتلين، ولم يكن ذلك الزمان قد عرف بعد امـــرأة واحدة في الإسكندرية أو في مصر كلها تستطيع أن تراقص ضابطًا أجنبيًا، أو تشرب معه الخمر، أو حتى تضاحكه مهما تكن مكانته أو فتنته.. كان هذا وأيسر منه؛ هو العـــار كـــل العار عند نساء ذلك الزمان!.

وحتى اللوائي طاردتهن اللعنة؛ كن يأنفن من الترفيه على الجنود والضباط المحتلين.. فهم أعـــداء، قبـــل أن يكونـــوا رجالاً.. ؟ ولقد تموت إحدى الشريدات من الجوع، ومع ذلك ترفض في إباءٍ رائع عطاءً أجنبيًا.

وكان الفرنسيون يعرفون هذا جيدًا، ويدركون أن الأمـــر دائمًا حتى عند نساء الطريق؛ يتعلق بالشرف المصري!

غير أن فتاة مصرية دارت رأسها بفتنة الشاب الجميل، وكان الجوع يخرس منها كل صوت، وللجوع أحياناً سلطان يتحدى الفضيلة، ويسخر بالمعتقدات.. وشعر الضابط بتأثير جماله على هذه الفتاة من أنصاف العذارى.

وكان يعرف أن المصريات يستجبن لمغازلة الفرنسيين بضربة "قبقاب" على الرأس!..

فأرسل خادمه ليستدعي الفتاة... وبينما كان الخادم يتفاهم معها في المكان المخصص للحريم شاهدته امرأة، فصرخت وتجمع النساء، وضربن الفتاة حتى ماتت.. أما الجندي فقد أغمي عليه من أول ضربة "قبقاب"، فأوثقته النسوة بالحبال، وحملنه إلى البحر وألقينه فيه، يبحث لسيده الجميل في الأعماق عن متاعٍ آخر... ليس من مصر على أي حال!. وهكذا مات غرقًا..!

لقد ظفر الناس بالمعتدين في المرتين، ولكنهم ما زالوا يذكرون حوادث أخرى هرب فيها الجناة.. فقد هاجم بعض البحارة بستاناً لا حارس له فاغتصبوا ثماره وأتلفوه.. وفي طريق مقفر اختطف أحد الجنود جرة ماء من فتاة متفتحة في الرابعة عشرة، واختطف منها في نفس الوقت قبلة شرهة،

وشرعت الفتاة أظفارها لتنشبها في رقبته، وهي تصرخ، ولكنها لم تكد تجد له رقبة؛ فقد لاذ بالفرار وهو يحمل جرة الماء!. وقد شهدت أماكن الحريم جنودًا وضباطًا كثيرين، هربوا وهم يصرخون من وقوع القباقيب على رءوسهم.. اختفوا لسوء الحظ وهم أحياء!

إن الناس في الشوارع يتذاكرون هذه القصص في سخط يخالطه النذير، وسيد كريم يذكرها "لكليبر".. وهو ينتظر وهم ينتظرون..

***

لا نوم بعد..!

"كليبر" مصمم على أن يسلم إليه الجناة المصريون.. والشعب في الطرقات مصمم هو الآخر على أن يسلم إليه الأعيان، والجناة الفرنسيون الذين أفلتوا.. ومصمم أكثر من أي شيء على أن يتعهد "كليبر" بعقاب من يعتدي على الناس فيما يقبل من الأيام.. حتى يقضي الشعب أمرًا كان مفعولاً!

وفهم "كليبر" أنه لو سكب قطرة واحدة من الدم المصري؛ فإن الإسكندرية ستعلن الثورة!

واستمر الموقف على هذا التوتر الرهيب ثلاثة أيام سويًا، وأقبل العربان من صحراء البحيرة في اليوم الرابع بالخيل والإبل والسلاح، ولم تبق إلا كلمة.. كلمة واحدة، وتشتعل!..

إن "كليبر ليعلم أن هذه المدينة ليست كالمدن، ولو أنها اشتعلت فسيخوض معركة مريرة غير مأمونة، بجنود مرهقين يهزهم الحنين إلى الوطن، وأحلام حياة آمنة مطمئنة تحت سماء فرنسا...!

وأخيرًا رأى "كليبر" أن الحيلة وحدها هي التي ستسعفه، ليحفظ شرف الجمهورية، وهيبة الجيش، ويتفادى في الوقت نفسه ثورة الإسكندرية.

فأمر بإجراء تحقيق عسكري دقيق ليحدد مسئولية رجاله.. وبعد قليل أخطر القاضي الشرعي أن التحقيق العسكري أثبت أن القتيلين قد بدأا بالعدوان. وهو كحاكم عسكري مقتنع بأن القتل جزاء عادل لهما، فالجروح قصاص ما في ذلك ريب. غير أن ولي الأمر لا أحد غيره هو الذي يجب أن يتولى القصاص.. فإن تولى أحد غيره أمر القصاص فقد يجب على القاضي الشرعي أن يبيح دمه، ويحكم عليه بالإعدام.. وفي مقابل هذا سيطلق سراح الأعيان... وهو مستعد لأن يعاقب

المعتدين الذين يطالب الشعب برءوسهم لــو أمكــن تحديــد أسمائهم، بيد أن أحدًا لن يستطيع هــذا!.. وعلـــى أي حـــال فسينذر جنوده بأشد العقاب لو تكرر منهم العدوان..! واقتنـــع القاضي الشرعي، فأصدر حكمًا غيابيًا بإعدام التاجر الـــذي قتل البحار، ولكن التاجر هرب.. أما قاتلات الجندي الوسيط فلم يعاقبن لصعوبة التعرف عليهن!

ورضي الناس بما أرضى القاضي.. ألـــم يتبـــع "كليبـــر" حكمة "نابليون" بأن يكسب رجال الدين ليكسب الشعب؟!

وأُفرج عن الأعيان فاستقبلهم الشعب بالهتاف والتهليل، ثم انصرف إلى حياته اليومية من جديد. غير أن "كليبر" مع هذا لم يكسب الشعب!

لقد اضطرته قوة الشعب أن يأخذ جنوده بالعنف، فأصدر إليهم منشورًا أذاع ترجمته على الشعب عن طريق القاضـــي الشرعي، يعلن فيه أن الإعدام سيكون عقاب كـــل فرنســـي يدخل المكان المخصص للنساء في بيوت المسلمين، وكل من يتسلق بيتًا من البيوت، أو يسرق، أو ينتهك شعائر الإســـلام، أو يحاول صيد الحمام داخل المدينة..!

وأذعن الجنود لإنذار القائد فارتدعوا... ولكن "كليبر" مع هذا لم يكسب الشعب! لأن هذا الشعب أمام هذه الترضية ظل يعتبر الجنود الفرنسيين محتلين غاصبين.. فلم تكد إحدى كتائب الجيش تمضي في رحلة خارج الإسكندرية لتؤمن المواصفات وطرق التموين، حتى تأكد "كليبر" أنه لن يستطيع أن يكسب الشعب.

ولم تجد الكتيبة في الإسكندرية قربة ماء واحدة، ولم تجد دابة تستعين بها على قطع الصحراء؛ فقد اختفت الجمال فجأة. ولم تجد الحملة مصريًا يؤجر دابة ولو بأضعاف ثمنها!

وما أوغلت الكتيبة في الصحراء؛ حتى طالعتها بالرعب من جميع أقطارها! فالعرب يهاجمون على طول الطريق تحت الشمس المحرقة، والقرى تغلق الأبواب في وجه الغزاة، وتصب عليهم الويلات! وهكذا لا تستطيع الحملة أن تظفر بلقمة من زاد أو قطرة ماء...! وينتهي بها المطاف إلى "دمنهور" لتجد ستة آلاف نفس مصرية تحمل السلاح!

وتعود الكتيبة مضعضعة القوى، تئن، وتلهث، وتلعن... وفي الأعماق من كل رجل؛ صوت يقول:

ـ أي شيء هذا الذي يدوخ أعظم جيش في العالم، وهو بعد فقير مريض مهزول، لا يكاد يقوى على حمل الأغلال.

لقد نسي هؤلاء الجنود أن شعبهم الفرنسي قد صنع معجزته، وأن الشعوب كلها تستطيع دائمًا أن تصنع المعجزات؛ ذلك أن الشعوب لا تغلب على أمرها أبدًا، ما دامت مؤمنة بحقها في الحرية .. وفي الحياة.

الثورة لن تموت

ألقى الورقة على الأرض، وسحقها بحذائه، وهو يصـــيح: الخونة..! الخونة..! لقد قبضوا الثمن.. ولكن الشعب يعرف أعداءه، ولن ينسى لهم هذا أبدًا!".

وسكت الجميع لحظة، وهم ينظرون إلى وجهه المتشنج.. وكأنما تعلقت المصائر بشفتيه.. ولكنه لم يقل شيئًا..

وقال رجل: "هذا هو البيان الثاني الذي تصدره هذه الحفنة من العلماء الخارجين على إجماع الشعب.. هذا كثير.. كثير جدًا يا سيدنا النقيب!".

ولم يجب النقيب!..

ولكن أزهريًا شابًا أجاب: "وقد يصدرون البيـــان الثالــث والرابع غدًا أو بعد غد، وشيوخنا الأجـــلاء يتحـــدثون عـــن صلاح نابليون وتقواه وفهمه للدين! من يدري؟ ربما جعلـــوه أيضًا شيخًا للإسلام و...".

وارتفع صوت عجوز من أقصى المكان: "والشيخ السادات معتقل، ومئات الرءوس المصرية تسقط برصـــاص الجـــيش المحتل! إنه الذهب يا بني! لقد أعفاهم نابليون من الضرائب، فهو ينال من البركات بقدر ما يمـــنح مـــن المنفعـــة، إنهـــم

يباركون الدماء والمظالم والفساد والطغيان.. هؤلاء الخارجون عن أمر الله.. وهم مع ذلك هم علماء الدين!".

فأجابه صوت فتى ساخر: "إنما يخشى الله ممن عباده العلماء".

فقال العجوز متألمًا: "أتعتقد أن رجلاً نفذ نور العلم إلى قلبه يستطيع أن يطالب المصريين بالاستكانة، إلا إذا كانت الكلمات التي تتراكم في نفسه أقوى من كل نور آخر؟! إن هؤلاء ليسوا من عباده العلماء، فالعلماء حقًا هم الذين يقودون النضال اليوم؛ أستاذنا النقيب، وشيخنا السادات، والأحد عشر عالمًا الذين قتلهم الفرنسيون بالأمس!.. إن الأزهر يا بني لن يتخلى عن دوره التاريخي أبدًا.. وسيظل يحمل المشعل، وينفذ أمر الله في وجه المعتدين والخونة جميعًا!".

ثم نظر الجميع إلى "النقيب"، وكان ما يزال صامتًا شاردًا، وحذاؤه يهتز فوق الورقة الملقاة على الأرض.. ولم يرفع "النقيب" رأسه عن الورقة التي اختلطت بوحل الحذاء.. وظل يقول كأنما يناجي نفسه: "إنهم يخدمون كل طاغية يدفع الثمن.. وهذا كان شأنهم مع الأمراء! إنهم يتهمون الثورة بأن يدًا أجنبية تحركها.. حسنًا! فهي يد الله، هي يد الشعب..،

وهي يد أجنبية عنهم حقًا!.. وستخلص هـذه اليـد مصـر المسكينة بضربة واحدة من طغيان الفرنسيين والأمراء!".

ثم رفع "النقيب السيد عمر مكرم" رأسه وأخذ ينظر إلـى وجوه الجميع، وكأنما أشرق وجهه العابس بنور عجيب.. ثم قال: "لم نخسر شيئًا يا أصدقائي؟ ألم يمت المـالطي الخـائن الذي كان يبطش بنا وهو في خدمة الألفي، وعاد يبطش بنـا كعبد للفرنسيين؟!"

فأجابه الأزهري الشاب: "نعم.. نعم يا سيدنا النقيـب.. آه لو كنت معنا منذ أيام في بركة الفيل.. ولكنك كنت تقود ثورة الغورية، وكنا نحن بلا قائد.. لقد أقبل يفسح الطريـق علـى أجسادنا لسيده الجنرال ديبوى وجنده.. وكان يطلق رصاصه علينا بوحشيته المعروفة.. إن المالطي وكيل المحـافظ كـان يطمع على ما يبدو في منصب المحافظ، ولكننـا انقضضـنا عليه؛ النساء من فوق المرتفعات يقـذفن بالحجـارة وقطـع النحاس، والرجال بالحراب والخناجر والعصي، وفي لحظات كان هو على الأرض مضرجًا بدمائه البخسة، ومـن بعـده سيده الجنرال، وعشرات من الجنود!".

فقاطعه النقيب متحمسًا: "وعشرات من الخونة الذين لا يملكون في هذا الوطن إلا المال، والذين يبيعون كل شيء بالمال، ويجرون وراء كل من يمنح المال!.. ولكن اسمعوا يا أصدقائي؛ إن الثورة لم تنته وإن هدأت لبعض الوقت.. لا أمن للمحتل هنا.. أليست لكم قرى؟ ! حاربوه إذن في كل قرية، وفي كل شبر من الأرض!.. لن يغلبنا المحتل على أمرنا أبدًا.. قد سيطر على القاهرة الآن كما سيطر على الإسكندرية من قبل.. ولكن لتصنع القاهرة، ولتصنع كل قرية في مصر كما صنعت الإسكندرية. لا زاد ولا ماء للمحتلين.. اذكروا ما حدث في الإسكندرية دائمًا؛ المرأة التي تحادث جنديًا من المحتلين يجب أن تقتل، الرجل الذي يبيع الزاد لهم يجب أن تحرق تجارته، وليهلك غرقًا من حمل قطرة ماء إلى أعداء الوطن! إن لقمة الزاد أو قطرة الماء تمنحهم القوة ليستمروا في مظالمهم وعدوانهم! أتفهمون؟! أما هذه القلة القليلة من العلماء الذين يحاولون أن يضللوا الشعب، فما يضلون إلا أنفسهم.. إنهم لا يعرفون أن ما عند الشعب خير وأبقى.. وأن يوم حسابهم قريب!".

وعصفت رياح نوفمبر في خارج بيت النقيب، تحمل أنين المحزونين، وزفرات الغضب، ودموعها تسيل على مئات الشهداء.

***

وطرق الباب قادم غريب..

وأمسك الجميع أنفاسهم.. ولكن "النقيب" تقدم بمصباحه إلى الباب بعد أن أمر ضيوفه أن يختفوا في بعض سراديب البيت..

وفتح الباب.. فاندفع منه رجل يلهث!.

وهمس في أذن "النقيب" بكلمات.. فقال له النقيب في رسوخ: "ليمض معهم بعض رجال". وهمس في أذن الفتى الأزهري، وفي أذن الشيخ العجوز، وانصرف الجميع!

***

في الصباح كانت السفن الفرنسية تنحدر مع ماء النيل إلى فرع رشيد، ولم يخف الكابتن "جوليان" عجبه وهو يرى الرجال يعملون بهمة خارقة؛ فقد كان يجب أن يمضي بسفنه منذ أيام إلى الإسكندرية، يحمل رسالة للقوة المحتلة هناك، وكان في حاجة إلى ملاحين مصريين يجرون الشراع ! ولقد

أنفق كثيرًا من الجهد، وبذل كثيرًا جدًا من المال، ولكن رجلاً واحدًا من أهل بولاق لم يقبل أن يخدم السفن الفرنسية، والرجال القلائل الذين حشدتهم السلطات الفرنسية، وحشدت لهم الشيوخ ليعظوهم بالطاعة والامتثال .. هؤلاء الرجال أمسكوا بلحى الرجال فمرغوها في الأرض، ثم وثبوا بلا سلاح على الجنود الفرنسيين المسلحين، يريدون تمزيقهم بالأظافر!..

لقد يئس "الكابتن جوليان" من العثور على ملاحين مصريين، ولكنه فجأة استقبل عشرات من الرجال يقبلون العمل معه باسمين.. بأي أجر..

وكانت شمس نوفمبر الدافئة تملأ الأفق الرحيب الساكن، والجنود الفرنسيون يتطلعون إلى الأرض الجرداء على الشاطئين، ويتهامسون فيما بينهم بأغنيات من فرنسا، ويتذاكرون ثورتهم الكبرى التي صنعوها وحطموا بها طغيان "البوربون"، ليقفز على الأشلاء رجل "كنابليون" يجعل بدل الإخاء والحرية والمساواة والسلام؛ هذه الحروب التي لا تكاد تنتهي في القارة وعبر القارة!

وأخذوا ينظـــرون إلـــى الملاحـــين أصـــحاب الأجســـاد البرونزية... كانوا هم أيضًا يتناشدون بأغنية حزينـــة مـــن أغاني مصر.. وأحس الجميع لبعض الوقت أن ثمـــة أشـــياء مشتركة بينهم.. أن شيئًا مجهولاً عميقًـــا يجمعهـــم! ولكـــن الملاحين شعروا أن حائلاً ما يقـــف بيـــنهم وبـــين هـــؤلاء الفرنسيين، وشعر الجنود الفرنسيون هـــم أيضًـــا أن جـــدارًا غليظًا غير إنساني عزلهم عن هذه النفوس الإنسانية. لعلـــه حائط أقامة نابليون، وأحلام السيادة!..

وفي الحق إنهم يتمنون لو حطموا هذا الجدار الغلـــيظ!.. وتلاقت العيون لبعض الوقت، وأومضت بالنور.. لماذا يقتل هذا الرجل الفرنسي ذلك الرجل المصري.. لماذا أقبلوا مـــن آخر الدنيا إلى أرض لا يعرفونها من قبل، ليملأوها بـــدماء أهلها.. ترنحت الرءوس برقة الأنسام التي تطرب المصري والفرنسي على السواء... وتحركت الأيدي تمسح العرق الذي يسيل من كل الأجساد؛ الفرنسية والمصرية على السواء!

وفجأة امتلأت الأرض الجرداء بعديد من الناس من أهـــل القرى.. وعلى جانبي النيل وقف الأطفـــال ينظـــرون إلـــى الرجال الذين أقبلوا ليقتلوا آباءهم، ووقفت النساء يحدقن فـــي

الذين انحدروا من وراء البحر ليجعلوهن أرامل!... وتطلع الرجال إلى هؤلاء الجنود الذين قتلوا إخوة لهم في القاهرة، وفي الإسكندرية، والذين سيقتلونهم هم أيضًا!

ونظر الكابتن "جوليان" إلى جموع الفلاحين على الشاطئ، فصاح برجاله: "أطلقوا النار!"، وتلكأ الجنود لحظة.. لماذا يطلقون النار؟... لقد أطلقوا النار أكثر مما ينبغي في كل مكان... وإنهم ليتقززون اليوم من كثرة ما أسالوا من الدماء البشرية.. أتراهم قد أقاموا الحرية هناك ليقتلوا الناس بلا حساب، في بلادٍ بعيدة.

وأخذ الجنود ينظرون إلى الأطفال الصغار الذين يشيرون إلى البنادق في "زقزقة" مروعة.. لقد تركوا في أرض الوطن أطفالاً كهؤلاء يروعهم منظر السلاح الذي يمزق جسد الإنسان.

***

وشاهد "الكابتن" جنوده ينظرون إلى الناس شاردين فصرخ في غضب: "أطلقوا النار.. من يتأخر سيقتل".

وأطلق الجنود النار على الكتل البشرية المكدسة على الشاطئ، وإذا ذاك توقف الملاحون المصريون، ودس كل

رجل يده في جيبه ليخرج قطعة من سلاح؛ بندقية أو سيفًا، أو خنجرًا.

وسدد أحد البحارة بندقيته إلى "جدوليان".. فخر صريعًا... ثم جنحوا بالسفينة على الشاطئ.. وعلى الشاطئ دارت المعركة.. وهجم الفلاحون بالفئوس والأحجار.. والجنود يطلقون الرصاص..

* * *

وحُملت الأنباء إلى نابليون وإلى السيد عمر مكرم؛ فقال نابليون في غضب: "أحرقوا هذه القرية.. سأبني إمبراطوريتي هنا، ولو على أنقاض هذا الشعب. سأعرف كيف أخضع هذه البلد .. سأعرف". وعندما كان "نابليون" يقول هذا كانت انتفاضات الناس في القرى تجيب بلا ضوضاء: "إن الثورة لن تموت".

أما السيد عمر مكرم فقد أطرق قليلاً يترحم على الشهداء.. وقلب كفيه، وارتفع وجهه إلى السماء مشرقًا بالنور مبللاً بالدمع، وهو يقول: اللهم إن هذا هو ما أردت.. اللهم إننا لم نرد هذه الدماء.. اللهم إنك أنت الحق، وأنت السلام.. وما أردنا إلا الحق، وما نريد إلا السلام. اللهم إننا

لم نرد هذه الدماء، ولكنهم يسرقون أقواتنا، ويحتلون أرضنا، ويغتصبون ديارنا، ويفسدون ضمائر الضعفاء منا.. اللهم لا تعاقبنا بما فعل السفهاء، واعف عنا.. اللهم على اسمك نضرب، وبك نهتدي حتى تطهر الأرض الحرام.. اللهم إننا لم نرد هذه الدماء، وما أردنا إلا الحق".

***

ودوت في أعماق الشيخ أنغام مقدسة، وأصبح لانعكاس الشموع على وجهه المخضل بحبات الدموع روعة القديسين في الزمان القديم..

ومسح الشيخ وجهه..

والشعب يضرب.. ثم يضرب..

حدث ذات ليلة

فجأة، انتفض واقفًا، وتركها تنظر إليه في رعب وهو يلوح بسيفه، ويصرخ في وجه الفارس الذي كان منحنيًا أمامه في خضوع ورجفة.

ولم تكد الجارية الشائقة تدخل إلى مستقرها مع حريم القصر، حتى كان صوت "البرديسي بك" يزلزل الجدران الشاهقة الموشاة بالذهب.

إن "سيد القصر" غاضب منذ اليوم كما لم يغضب من قبل أبدًا.

والتصقت الجواري والمحظيات بالأبواب يستمعن، وقلوبهن تدق من خشية المجهول الذي يوشك أن ينقض. وبدأت إحداهن تجمع مجوهراتها لاهثة، بينما أخذت الأخريات يصارعن الذعر الذي يجتاحهن. ودوى في كل أذن صياح سيد القصر: "يجب أن يدفعوا الضريبة. بأي وسيلة. ولتكن الضريبة لمدة ثلاثة أعوام لا لعام واحد، وسأرى ما يصنعون. اذهب.. اذهبوا.. اقطعوا لحوم هؤلاء الأوغاد..". وقالت امرأة في القصر: "إن هؤلاء هم الذين سيقطعون لحومنا نحن". وأسرعت هي الأخرى تجمع من

ثيابها وجواهرها.. وعلى مدى قريب من قصر "الناصرية"؛ كان "هؤلاء الأوغاد" يملأون المساجد والطرقات.. أما النساء فقد صبغن الوجوه بالسواد، وسرن يلطمن الخدود، ويتطوحن كالنادبات، وقد حملن قطعة من الخشب على هيئة نعش سمينها "البرديسي". ومضى من خلفهن الغلمان، وفي أيديهم الغضة قطع الحديد والحجارة والعصي. وكانوا يهتفون ويلعنون قائلين: إيش تاخد من تفليسي يا برديسي، والسيوف من وراء ذلك كله تلتمع في أيدي الرجال، بينما الطبول تقرع والأعلام تخفق. وللزحام المختلط بالعرق والتراب رنين واحتدام..

ما زالت هذه السيوف مطاولة بالدماء، وإنها لتطلب اليوم دمًا جديدًا.

على أن "البرديسي" حاكم مصر لم يكن يستطيع أن يقدر شيئًا كهذا..، ولكنه نسي.. ومثله دائمًا ينسون! ففي أعوام قلائل استطاع هؤلاء الذين يتجمعون في الطرقات والمساجد؛ استطاعوا أن يصنعوا أكثر من معجزة! طردوا "نابليون" وأرسلوه في شراع ممزق، يضطرب في بحران أحلام الإمبراطورية!.

وبطشوا بثلاثة من الولاة الأتراك واحدًا بعد واحـــد، ثـــم اختاروا لأول مرة في تاريخهم الحكومة التي تدبر شـــئونهم، ولقد ارتضوا "البرديسي" حاكمًا عليهم، وارتضـــوا "محمـــد علي" شريكًا له، فلماذا إذن يتنكرون اليـــوم؟!. أمـــن أجـــل الضرائب الجديدة؟؟ إن الحكومة حين قررت هذه الضـــرائب كانت تقدر أن أهل القاهرة سيذعنون لما تأمر به.

أليست هي الحكومة التي اختارها الشعب؟!

غير أن التجار أغلقوا حـــوانيتهم وامتنعـــوا عـــن دفـــع الضريبة، ثم مضوا يتشاكون إلى بعضهم من وطأة الغـــلاء وخيبة الآمال العريضة في الحكومة التي اختاروها.. وأخذوا يتذاكرون قصصًا عجيبة عن إسراف السادة، وعـــن تـــرفهم المتوحش المستبد، وعن الجواري اللوائي يسبحن في العطر ويلعبن بالذهب. إن الفساد القديم لم يتغير كما ينبغي.

وانتشرت بين الناس فجأة حكايات لا تنتهـــي عـــن هـــذا الرجل أو ذاك من أتبـــاع الحـــاكم أو أصـــدقائه؛ الاتجـــار بالأقوات، بينما الأسعار ترتفع في جنون! وفي الوقت الـــذي تتمتع فيه طائفة قليلة جدًا من أهالي القاهرة بـــالغنى الفـــاجر

الفاحش، إذا بالناس جميعًا يتمرغون فـــي الوحـــل والجـــوع والمأساة!

وهكذا تجمع الناس في مـــداخل الـــدروب.. وانضـــمت جماعاتهم إلى بعضها، وقد صمموا ألا يدفعوا للحـــاكم بعـــد اليوم شيئًا على الإطلاق، فكفاهم ما دفعوه، وقد آن لهـــم أن يأخذوا.

ولكن جباه الضرائب يغلظون للناس، فيقبض الناس علـــى بعض هؤلاء الجباة.. ويعود جباة آخرون، ومعهم الفرســـان، فيثب الناس على الجباة والفرسان جميعًا؛ كل هذا حدث فـــي ساعات قلائل، والبرديسي بك في مقره البـــاذخ بالناصـــرية يعب الخمر من كف جارية كالمرمر!.. ولا تكـــاد الأخبـــار تصل إليه حتى يمتلئ حنقًا، ويفرغ من الخمر والنساء بعض الوقت ليصدر أوامره المشددة بقتل كل من يمتنع عـــن دفـــع الضريبة.

ولكن الأنباء ترد إليه من أهل القاهرة، وبدأوا يقتلون جباة الضرائب، فيأمر باستدعاء شريكه في الحكم ليرى معه رأيًـــا في أمر هؤلاء الناس.. وشريكه في الحكم رجل واسع الحيلة شديد الدهاء، إنه "محمد علي"!، ولكن "البرديسي" لـــم يكـــن

يستطيع أن يظفر "بمحمد علي" في تلك اللحظات، ولا حتى أحد جنوده؛ فقد كان "محمد علي" يعرف جيدًا إلى أين يمكن أن تمضي القاهرة حين تثور، ولقد علمته التجربة أن الذين يذكون الغضب في نفوس أهل مصر لا يجب أن يقاوموا هذا الغضب من بعد؛ لأنهم إذن سيكونون وقودًا للنار التي لا ترحم حين تشتعل..

وهو من أجل ذلك لم يحاول أن يقاوم مشاعر الناس.. بل على النقيض أمر جنوده أن ينضموا إلى الشعب، وأن يعلنوا الثورة هم أيضًا على "البرديسي"؛ استنكارًا للضريبة الجديدة التي ترهق أبناء مصر.

واختلط هو بزحام الناس حتى أصبح واحدًا منهم، والتمع سيفه مع السيوف.

وعاد "البرديسي" يزأر في قصر "الناصرية"، ويرسل الوعيد والنكير، وهمس في أذنه شيخ عجوز أن يأخذ العبرة من "محمد علي"، ويذعن لإرادة الشعب، ويلغي هذه الضريبة الجديدة، ويصنع شيئًا عاجلاً للقضاء على الغلاء، ولكنه في صلفه الثائر لطم ناصحه الشيخ، وقال إنه يعرف أن محمد علي يعمل لحساب نفسه؛ لا لحساب هؤلاء الثائرين، ثم

أصدر أوامره إلى أمراء المماليك أن يجردوا فرسانهم ليضربوا أهل القاهرة في البيوت والمساجد. ولكن مساجد الله وبيوت الناس كانت قد خلت من الناس، وتدافعت أمواجهم البشرية الهائلة في الشوارع منطلقة إلى مقر الحاكم.

والأنباء تصل إلى "البرديسي بك" كقرعات مطرقة حديدية على رأسٍ صغير.

لقد اقتحم الناس قصور أربعة من أمراء المماليك، وقتلوهم ونهبوا ديارهم، وقصر "إبراهيم بك" ببركة الفيل محاصر.. والمعركة تدور على أسوار القصر.. غير أن المهاجمين يتقدمون.. وأخيرًا هرب الطاغية الرهيب "إبراهيم بك"، ناجيًا برأسه، عندما رأى الجموع تجتاز مدخل القصر مقبلة عليه، وإذ ذاك صرخ "البرديسي بك" من فرط الهلع، وأسرع كمحظياته متعثرًا على سجاجيد القصر، يبحث عما يحمله من جواهر، ويلوذ بالفرار..

ولم يعد في كل القصور إذ ذاك رجل أو امرأة يستطيع أن يرسل ابتسامة، أو يمسك صيحة الرعب.. ولم يعد أحد يفكر في غير النجاة.. لقد ذهل كل امرئ عن أخيه ونسائه وبنيه.. وإن قضاء الشعب ليطارد الجميع!

واستقر "البرديسي بك" في قصر آخــر بعيــد.. بمصــر القديمة.. ومن هناك بدأ يدير المعركة.. وظل جنود المماليك ساعات متوالية يصبون الدمار على القاهرة من مدافع القلعة والأزبكية.. وأهل القاهرة يتقدمون ويقتحمون النار..

ووصلت فرقة من الثائرين إلى مصر القديمة، على الرغم من كل شيء.. ولكنها لم تســتطع أن تظفــر "بالبرديســي"، ولم يكن في الإمكان أن تظفر به؛ فقد هرب إلى حلوان، ثــم اختفى في الصحراء إلى آخر الزمان؛ حيث يصبح ويمســي جزءًا تائهًا أخرس من ظلمات النسيان.

وفجأة سكتت أصوات المدافع، وارتفعت زغاريد النساء.. وكان الظلام يغمر القاهرة فــي تلــك الليلــة مــن مــارس سنة ١٨٠٤، غير أن السواعد التي كانــت تهتــز بالبنــادق والسيوف منذ لحظات؛ أخذت تخفق بالمشاعل والأضواء.

في تلك الليلة ظلت القاهرة ترقص وتغني علــى ضــوء المشاعل الحمراء... وشهدت "بركة الفيل" أولى الضــحكات الخالصة الصادقة..

وفي الصباح كان كل رجل وامرأة ينظر إلى الآخر فــي إكبار.. وأمل مطمئن..

لقد صنعوا شيئًا ذات ليلة.. وسيصنعون غدًا شيئًا.. وهم يستطيعون أن يصنعوا كل شيء على الدوام!

إنها أيضًا معركة

إلى أين تمضي بهم حياتهم، هذه القلعة المضطربة، المفعمة بالسأم والروع والفراغ العريض..؟

لماذا يعيشون؟ .. لماذا يقفون هكذا وراء المتاريس كأشباحٍ فارقتها الظلال، في انتظار المجهول الذي سينقض، والذي لا ينقض؟!

إن الحرب مشتعلة منذ أمد بعيد بين أمراء القاهرة وأمراء الصعيد.. ولكن ما شأنهم هم؟!

لقد سخر بهم الباشا الوالي عندما أخرجهم من دورهم ليدفعوا عن القاهرة عدوان أمراء الصعيد.. أي "قاهرة" هذه التي سيدافعون عنها؟! إنها لتسخر بهم في كل نهارٍ وليل، وتطحن حياتهم بلا رحمة.. أتراهم يدافعون عن أمرائها الذين جعلوا الحياة شاحبة كالموت، خانقة كالفقر، زرية كالعار؟!

وتمطى رجل من أهل "بولاق"، وهو يستند إلى زميله، وينظر إلى المتاريس بضيق كبير، ثم قال: "ضحك علينا الباشا التركي!".. كان صوته جافًا مذعنًا هامسًا، وكان مطرق الرأس. وتطلعت إليه كل الوجوه التي لفحتها شمس الصيف، وأشرق على السمرة القاتمة الكئيبة نور غريب..

وصاح رجل آخر من ركن بعيد: "إننا هنا لنـــدافع عـــن الأمراء، وربما كانوا هـــم وأتبـــاعهم يقتحمـــون بيوتنـــا.. وينتهكون أعراضنا!".

وسرت في الأعماق من كل رجل دمدمة خانقة..

وكانت الشمس ما زالت تسـطع فـــي الســـماء بوهجهـــا الحارق، وتزهق الأنفاس، ورفع بعــض الرجـــال أكمـــامهم يمسحون من فوق الجباه قطرات من العرق الذي كان يركـــد برائحته في الهواء. والنيل يمتد من بعيد صامتاً بلا حركـــة، كحياة مفرغة، لا يعلم أحد أين بدأت ولا كيف تنتهي!.

وهمس رجل في أذن زميله: "مـــاذا صـــنعت بأختـــك؟". فأجابه بصراحة: "قتلتها هي والفارس الشركســـي". وأجابـــه رجل كان يسمع الحديث: "الفارس؟! إنه من أعـــز أصـــدقاء الأمير و... ". وقاطعه الأول: شـــرفت. رفعـــت رءوســـنا يا شيخ العرب.. عاش الحماس يا رجال!".. وأطبق الصمت على الجميع، وكأن كل رجل يفكر في مشكلة عميقة!.

وقال كهل كان ينظر في الفضـــاء العـــريض: "اســـمعوا يا أولاد. لقد تعبنا من هذه الحال.. لنا ثلاثـــة أيـــام ونحـــن غائبون عن بيوتنا. ما لنا نحن وهذه الحرب؟ ليدخل مراد بك

وأعوانه القاهرة، أو فلينتصر إسماعيل بك ويحتفظ بهذا البلد، فما لنا نحن؟!.."

فجاوبه شاب متحمس: أي والله.. إسماعيل بك مراد بك يتحاربان على الأراضي والجواري والقصور والسلطة، فما دخلنا نحن؟ سأعود إلى داري". وهتف رجل: "لنعد كلنا إلى دورنا". وشقت الأصوات العديدة ذلك الصمت المصبوب، والكل يقول: "لنرجع إلى البيوت".

***

وفي الحق إن أهل القاهرة والصعيد جميعًا كانوا قد تعبوا من الحرب؛ فهي ليست حربهم، وهي لن تحقق لهم شيئًا على الإطلاق.. والجيوش تستولي على كل شيء؛ على الدواب، والطعام، والأرزاق، وحتى النفوس البشرية!.

وعلى الرغم من الخراب الذي أخذ ينشب أظفاره في كل معالم الحياة والأحياء؛ فما زال "مراد بك" ينشر الرعب في القاهرة، والجيوش تحتشد هنا وهناك، وتلتقي في بعض الطريق، فتهوي الرءوس تحت سنابك الخيل، وتسقط الإنسانية مفتوحة البطن على التراب، وتختلط أحشاء الرجال بطين الأرض، وتخرب الحقول، وتنهب الدور، وتهدر

الحرمات.. ثم يهدأ الفريقان لبعض الوقت ... وبعـد حـين يعاودان صناعة المأساة من جديد!.

وفي مثل هذه الحرب يهدر كل ما هو إنسـاني؛ الحيـاة، والكرامة، والحقوق، على السواء! وقد عرف أهل القاهرة في تلك الحرب ألوانًا من النكال.. هاجم المعسكرون في بـولاق كل حوانيت الحي، وكل الدور، واغتصبوا النسـاء، وفتكـوا بالفتيات الصغيرات، وسرقوا كل ما استطاعوا.. وشكا أهـل بولاق إلى "الباشا التركي"، فقال لهم: "سأعاقب المعتـدين.. ولكنها الحرب!" .. ولم يعاقب أحدًا.. لأنها الحرب.

وتشاجر فارس شركسي مع فتى مـن بـاب الشـعرية، فضربه الشاب المصري وطرده من الحي، وعـاد الفـارس يقود عشرة من الجنود فداهموا الحوانيت، وحطمـوا بعـض ما فيها، وسرقوا ما وصل إلى أيديهم.. وهب رجـال الحـي فانهالوا على الجنود ضربًا بالسكاكين والعصي، ولاذ الجنود بالفرار وهم مثخنون بالجراح، وكبر على الفارس أن يحدث كل هذا، فعاد مصطحبًا ثلاثة من كبـار رجـال الشـرطة، فقبضوا على الفتى المصري.. وقاومت أمه بكل ما تسـتطيع أم أن تحمي به وحيدها.. وأحنق الرجال، فقتلوا الفتى الوحيد

أمام عيني أمه الوالهة.. واختفوا جميعًا تاركين وراءهم امرأة تعوي، وتقبل في جزع مجنون كل ما بقي من وحيد مـــات؛ دمه، وجثته الباردة!..

وثارت "باب الشعرية"، وطالبت دماء القتيل بحقوق الدم.. ولكن "الباشا التركي" اعتذر للناس قائلاً: "إنها الحرب!"

وفي الحرب تهون الدماء، وتفقد الحيـــاة قيمتهـــا العليـــا، ويصبح الإنسان، هذا الكائن الجليل ذو المقـــدرة الشاســـعة؛ مجرد حشرة تسحق في صمت وبلا مبالاة!

***

غير أن "الباشا التركي" كان سعيدًا حقًا بهـــذه الحـــرب.. فلو أن أمراء المماليك عقدوا فيما بيـــنهم الصـــلح لواجهـــوه مجتمعين بمتاعب لا قبل له بها..

وهو ما زال يوقظ الفتنة بين الطرفين.. ويؤلـــب أمـــراء القاهرة على أمراء الصعيد الذين أعلنوا العصيان على الوالي التركي، وبسطوا سلطانهم على كثير من الـــبلاد، وقطعـــوا الطريق على القاهرة، وأخذوا يهددونها بالغزو ما بين يـــوم وآخر..

ولم يعد الصعيد يرسل الغلال والخيرات إلـــى القـــاهرة.. وعرفت القاهرة الجوع!.. على أن تجار الغلال كانوا يدفعون قدرًا طيبًا من المال للذين يحكمون الطريق، وما تكاد الغلال تصل إلى القاهرة حتى تبـــاع بأربـــاح فاحشـــة لا يطيقهـــا إلا قليلون.

ولم تكن الغلال وحدها هي التي ارتفعت أســـعارها؛ فقـــد غلا كل شيء حتى الماء.. ولم يعد في مقدور الإنسان مـــن أهل القاهرة أن يحتمل تكاليف الحياة.. وحتى الموت نفســـه كان قد أصبح غالي الثمن!

على أنه لا الفقر ولا العذاب، ولا كل مـــا يرهـــق أهـــل المدينة؛ كان سببًا صالحًا لتعكير صفو الحياة علـــى الـــوالي التركي، والذين حوله!

كسب تجار الحبوب في أيام الحرب أضعاف ما كسبوه في أعوام السلام، وكانت لهم منزلة خاصة عند الوالي.. وكـــان لهم ذوق مصفى في تقـــديم الهـــدايا والهبـــات والجـــواري والحسان لكبار الرجال!...

أما تجار الأسلحة والبارود؛ فقد كانوا أكثر ذكاءً من تجار الحبوب؛ إذ أشركوا الوالي في أرباحهم، فكانوا يكسبون فـــي

مدى أيام قلائل أضعاف ما يكسبونه أثناء السلم من تجارة عامٍ كامل.

وكان تجار الحبوب وتجار الحروب وصديقاتهم من الجواري والمحظيات؛ يؤلفون بطانة للوالي ولكبار الرجال!.

وقد حاول أهل القاهرة أن يشكوا من ضغط الحياة عليهم، وطالبوا بتخفيف ويلات الغلاء، والتمسوا من أمرائهم أن يعقدوا الصلح حتى تغدو الحياة أكثر احتمالاً، ولكن ضجة المصالح الفاسدة خنقت أنغام السلام، واستمرت الحرب، واستمرت الحياة تمزق الأحياء!

***

ولكن الوالي التركي كان رجلاً شديد الذكاء.. فقد شاهد تبرم الناس وضيقهم بما هم فيه. وقد رآهم يتصلون بعلماء الأزهر، ويمضي واحد منهم إلى الأمراء مطالبًا بالصلح، فأمن العلماء على أرضهم الشاسعة!.. وبطريقة ما جعلهم لا يشعرون بوطأة الغلاء!.. وهكذا استطاع أن يعزل العلماء عن الشعب.. ثم رأى أن يشغل الناس عما هم فيه من أمر الغلاء وأعباء الحياة، فقرر أن يشركهم في هذه الحرب... وفي الحرب ينسى الإنسان نفسه، وينسى متاعبه، وينسى كل

شيء!... وخرج بنفسه فطاف بهم، وطالبهم أن يخرجوا إلى المتاريس ليدافعوا عن مدينتهم العزيزة، وحين يردون عنها الغزو فستمنح لهم الهبات وستنتهي الحرب، وتخفض الأسعار. لقد استعان على الناس بالعلماء، فطالب العلماء أهل القاهرة أن يستجيبوا "للباشا"، وعلى "يد الباشا" صلاح الأمور!

وصدق أهل القاهرة... وخرجوا إلى المتاريس... وأقاموا بها ثلاثة أيام.

وفي هذه الأيام الثلاثة التصقت نفوسهم كما لم تلتصق من قبل. وعرف أهل "باب الشعرية" كثيرًا من متاعب أهل بولاق.. وأشفق أهل بولاق على ما يلقاه أهل "الحسينية" و"بركة الفيل". وروى بعضهم لبعض قصصًا رهيبة انتفضت لها نفوس الكثيرين..

لقد كان الكدح اليومي يعزل كل رجل عن أخيه الذي يعاني من نفس الأشياء.. ولكنهم في هذه الأيام الثلاثة أطلوا على نفوس بعضهم من خلال الأحاديث والشكايات.. وأدرك الجميع أنهم ضحية سخرية واحدة، وأنهم مرتبطون بخيط واحد مندفعون إلى مصير واحد.

وقرروا جميعًا أن يعودوا إلى بيوتهم.. وفي الطريق إلى الدور كانوا يهزون رءوسهم أسفًا؛ لأن شيوخهم لم يدافعوا هذه المرة عن مطالبهم بتخفيض الأسعار.. ولم يتحرك واحد منهم منذ قابل بعضهم "إسماعيل بك" ليطلب منه أن يعقد الصلح مع "مراد بك"... ودارت وراء أسوار القصر أحاديث شارك فيها الوالي التركي، ولا يعرفها الناس!

ولم يكد الجنود يخلون إلى أنفسهم وراء المتاريس حتى تركوا أماكنهم هم الآخرون، وعادوا إلى بيوتهم.. فهم يعانون من الحياة كما يعاني أهل القاهرة.. وهم على أي حال لا يعرفون لأنفسهم مصلحة خاصة في أن يقتلوا إخوانهم وأصدقاءهم، والرجال الذين لم يسيئوا إليهم من جنود "مراد بك"!

إن أهل القاهرة والجنود، يشعرون أنهم يتركون حياتهم لرجالٍ آخرين يتصرفون فيها، ويستغلونها، ويسخرونها كما شاءت الشهوات والأطماع.

واستقبلت البيوت رجالها الغائبين!

أي عاصفة مشئومة هوجاء هبت على هذه البيوت جميعًا؟ هنا امرأة تصرخ، وهناك طفل يئن.. أشياء، وثمة أشياء

خرساء! ليسوا هم الأمراء والأتباع هذه المرة... ولكنه عدو غير إنساني، بشع، فظيع، مهين.. إنه الجوع!..

وقالت امرأة تلهث لزوجها الذي يداري الدموع: "لم يعد عند الخبازين قمح ولا ذرة، وقد بعت كل شيء!".

وقال طفل غاضت حياته وهو يتعلق في عنق أبيه بذراع واهية: "أمي تقول إن أختي الصغيرة ماتت.. إنها فقط كانت تريد لقمة.. ولم تكن هناك لقمة!".

وأطبق الليل على القاهرة.. وتفجرت بعض العيون والأفواه بالدماء!.

وفي مكان آخر من المدينة كان الوالي التركي يجلس مع "إسماعيل بك"، وحقبة من الأمراء والتجار الكبار.. وأمام أقداح الخمر الفاخرة، وعلى أنغام الرقص جلسوا يتناقشون.. وتناول أحد تجار السلاح قطعة طيبة من اللحم، وقال وهو ينهش ما في يده: "ما دام أهل القاهرة قد تركوا المتاريس فسيموتون من الجوع!".. ونظر إليه "إسماعيل بك" مندهشًا، وكان مهمومًا حقًا.

وأخذ "الباشا" يشرح الموقف لتجار الحبوب، فعرض عليهم أن يخففوا الأسعار بعض الشيء، ليضمن لهم استمرار

الربح.. فإن هذا وحده هو الـــذي ســيقنع النـــاس والجنـــود بالخروج إلى المتاريس.. وأطرق تجار الحبوب.. وتقــدمت إحدى المحظيات إلى "الوالي" بكأسٍ من ذهب، وجعلت تسقيه وهي تلاطفه.. ثم قالت: "اقتل هؤلاء الناس الـــذين يعصـــون أمرك يا مولاي".. وهتف أحد تجار السلاح ضاحكًا: "إنهـــا فكرة طيبة.! وضحك الجميع. ولكن "إسماعيل بك" ظل وحده صامتًا مهمومًا..

وبينما كان "إسماعيل بك" يتابع عبث الرجال؛ أقبل رسول يقول: "إن مراد بك على أبواب القاهرة".. وانتفض إسماعيل بك واقفًا، وقفز "الوالي" من مكانـــه.. واخـــتلط المجتمعـــون وتعالت الصرخات.. وشعر النساء بمثل حد الســـيف يمـــس الأعناق الناصعة الرقيقة. وفي لحظة كان "إسماعيل بك" مع بعض أتباعه يقفون وراء المتاريس، أما الوالي فقد خرج في موكبٍ كبيرٍ من الحراس، يطوف على الحارات والدروب..

وحطم الحراس أبواب الحارات.. وأخذ الوالي يدخل بيوت الجنود، وأهل القاهرة، يطالبهم بـــالخروج إلـــى المتـــاريس، فالقاهرة في خطر.

وأشار إليه رجل يحمل طفله الميت، وهو يقول: "هذا هو الخطر". وصرخت في وجهه امرأة: "اتركونا.. إننا نمـوت من الغلاء والجوع". وذهل الوالي.

وطاف على بيوت العلماء لعله يجد واحدًا يمضـي معـه ليقنع الناس.. ولكن العلماء جميعًا نصحوا له بألا يعتمد على أهل القاهرة.. فهم مشغولون عن محاربة "مراد بك" بمحاربة الجوع.. وصاح الوالي محنقًا في واحد منهم: "ولكنكم أنـتم تحركون القاهرة!. وهم يستمعون لكم وحدكم".. فقال الشـيخ في وقار: "لا.. إنها هي التي تحركنا، وقد أفلحـت لـبعض الوقت في أن تفصل بين أغنياء العلماء وبينها.. فلو طالبهـا أحد اليوم بما تريد لقتلته!"..

وظل الوالي يطرق الأبواب حتى الصباح.. بلا جـدوى.. لقد سمع من كل بيت.. من كل امرأة ورجـل وطفـل.. أن الخطر الحق ينبثق منه ومن أعوانه.. وإن القاهرة تريـد أن تعرف الحياة الآمنة. إنها تريد الخبز والسلام!..

وفي الصباح كانت القاهرة كلها تهتز بالصياح والوعيد.. وكان العلماء حتى الذين صانعهم الوالي.. يمضون مع الناس مطالبين بالسلام، وبتخفيض الأسعار، وإصلاح الحياة!..

وعلى أسوار القاهرة وراء المتاريس؛ كان إسماعيل بـــك ينتظر هو وحفنة من جنوده.

وتقدم أهل القرية علـــى المتـــاريس فحطموهـــا.. وأدرك "إسماعيل بك" أنه لا يستطيع أن يحارب في جبهتين برجـــال قليلين، فقد كان معظم الجنود مع الأهـــالي يطـــالبون بعقـــد الصلح وتخفيض الأسعار! وكان هذا كلـــه جديـــدًا عليـــه.. واضطره الناس إلى ترك الأسوار.. وسار معهم إلى "الوالي التركي"! الجميع يطالبون بعقد الصلح.

إن المعجزة وحدها هي التي أخرت هجوم "مـــراد بـــك"، فلو أنه هاجم القاهرة فـــي تلـــك الليلـــة لاســـتولى عليهـــا بلا عناء... وربما طار رأس الوالي عن جسده.

وأعلن "الوالي التركي" أنه سيعقد الصـــلح بـــين أمـــراء القاهرة وأمراء الصعيد.. وكان وهو يعلن للناس هذا القـــرار يعالج في أغواره إحساس الداهية المهزوم.

ــ والغلاء يا باشا؟!

وسكت "الباشا" قليلاً، ثم أعلن أنه سيخفض الأسعار.. إن الأسعار ستبدأ في الانخفاض.

ولم يقنع الناس، وطالبوا بأن تعود الأسعار إلى ما كانت عليه، وطالبوا أيضًا برءوس كبار المستغلين.. فهم مسئولون عن الأرواح التي أزهقها الجوع!

وأدرك الباشا أنهم في هذه اللحظة قادرون على خطف رأسه هو.. فلم يقل شيئًا.. ودخل إلى قصره قليلاً، وتقدم الناس يزحفون إلى القصر، وسقط بعض الحراس قتلى، والناس يزحفون.

وخرج "الباشا الوالي" ضاحكًا ومن ورائه فارس عملاق يحمل حربة طويلة.. وأشار إليه فرفع الحربة، وأشار الباشا ضاحكًا إلى رأس بشري معلق فيها، وكان الدم ما زال يقطر منها.. وصاح: "هذا هو عدوكم الأكبر".

وهلل الناس، وغمرهم فرح هائل.. فهذه هي رأس أكبر تجار الحبوب، لكم أذيع أنه صديق الباشا وصفيه..!

وعاد الباشا يقول للناس: "هل أنتم راضون عنا؟.. قتلنا الغلاء، وهذا هو صانع الغلاء!".

وتعالت الأصوات: "راضون.. الله يرضى عنك"، وانصرف الناس مستبشرين، وخيل "للباشا" أنه كسب المعركة

بعد أن ضحى بصديق عزيز عليه حقاً.. وخيل إليه أنه سخر بالناس.

وعلى أي حال فقد عادت الأسعار كما كانت.. وعقد الصلح بين الأمراء... وانتهت الحرب. ولم يعد أحد من التجار يستطيع أن يسرق من أرزاق الناس اعتمادًا على صداقة "الباشا". وهكذا أبطأت الكنوز والأموال عن خزانته.

وبدأت بهجة الحياة تشرق من جديد في وجوه الأحياء من أهل القاهرة، وأدركوا منذ ذلك اليوم أنهم يستطيعون أن يفرضوا حقوقهم على الأمراء وعلى الوالي نفسه، وأنهم يستطيعون دائمًا أن يكسبوا المعركة.. مهما يكن النصر بعيد المنال.. حتى لو تخلى عنهم قوادهم لبعض الوقت.

مصر للمصريين

طلبت الحكومة من الفلاحين والتجار والصناع أن يدفعوا مزيدًا من الضرائب، وأن يضحوا في هذه الأيام بكل شـــيء؛ لأن مصلحة الدولة في خطر.

ولم يكن لديهم شيء يضحى به علـــى الإطـــلاق.. فمنـــذ سنواتٍ طوال، عندما لم تكن مصلحة الدولة في خطر؛ وهـــم يحصلون على القوت بمعجزة، وأحيانًا لا تسعفهم المعجزة!.. ولقد هجر الفلاحون الحقول هربًا من لذع السياط، فـــتخطفهم لصوص البدو، وارتمى الآخـــرون تحـــت أقـــدام المـــرابين ليستطيعوا دفع الضرائب المتراكمة، فاستولى المرابون آخر الأمر على ماشيتهم، ثم صاروا عبيدًا يعملون بلا مقابل فـــي الأرض التي امتلكوها ذات يوم، ثم لم يعد في مقدور دمائهم أن تنزف قطرة أخرى..

ولم يعرف الصناع والتجار الصغار في القـــاهرة كيـــف يستطيعون أن يدفعوا ضريبة ثانية، فإن كـــدحهم المضـــني ليعجز حتى عن إطعام الجياع من ورائهم!

لم يفهم واحد منهم شيئًا من هذا الذي يحدث في تلك الأيام الزاهرة من عصر إسماعيل!

فإنه على الرغم من لهب الجـوع الـذي يلفـح أمعـاء الفلاحين؛ فما زالت الطرق والترع تشق لتصلح أرض السادة الكبار، والقصور الباذخة ترتفع على مشارف الأفق النـابض بالأنين؛ حيث يتهالك في صمت عديدٍ من البيوت السوداء!

وغير بعيد من الأزقة التي تزحف الأطفال عـراة علـى طينها؛ كانت الحدائق تزدهر، والتماثيل ترتفع إلى السـماء، والشوارع الأنيقة تمتد، والسهرات البـاهرة تـزحم ليـالي القصور!

ولقد قيل ذات يوم للذين عرفتهم اللعنة أن مصر أصبحت للمصريين. ومع ذلك فهم يرون وجوهًـا حمـراء جديـدة، تزحف تحت قبعاتها لتغزو المدن والقرى!

وفي الحق إن مصر كانت قد استقلت عن تركيا.. وبدأت بإعلان العصيان في وجه تركيا، فقاومت الدول الكبرى هـذا العصيان أول الأمر كما كانت تقاوم كـل حركـة اسـتقلال وتحرير في ذلك الزمان. غير أن إنجلترا الواسـعة الغنـى بدأت تلوح لمصر بمسـاعدتها الماليـة البريئـة؛ تشـجيعًا لنهضتها.!

وعندما قبلت مصر هذه المساعدة؛ أيدت إنجلترا استقلال مصر، وأخذت تملأ سمع العالم بأحاديثٍ طوال من حقوق الشعوب في الحياة الحرة، وحملت تركيا على أن تعترف لمصر بالاستقلال، ومضت تعرض على مصر خبراء فنيين يشرفون على إنفاق المساعدات المالية في وجوه النهضة. وأخذت مصر بدورها تستدين وتستدين، والخبراء يتدفقون لمراقبة الإنفاق.. ثم لمراقبة السداد، ثم للإشراف المتكامل على الميزانية كضمانٍ طبيعي للوفاء بالديون وفوائدها..

أما الذين عرفتهم اللعنة؛ فقد وجدوا أنفسهم على الدوام يدفعون الضرائب.. كانوا يدفعون أول الأمر لإرسال الجزية إلى تركيا!.. ثم عادوا يدفعون لأداء ديون الدولة لأوروبا، وإنهم يُطالبون الآن بدفع ضرائب أخرى؛ لأن مصلحة الدولة في خطر.

وأقبل منهم إلى القاهرة بعض الذين وسعهم أن يرحلوا، وما تزال في خيالاتهم صور سمعوها في الطفولة عن الأجداد؛ إذ يفزعون إلى القاهرة ليلتقوا بإخوانهم وأقاربهم من التجار والصناع، ويندفعون إلى الجامع الأزهر مستجيرين

بعلمائه من مظالم أمراء ذلك الزمان. وكان العلماء ينـــدفعون بالمواكب الثائرة ليقتنصوا حقوق الناس من حكومة مصر!

ومضى الأحفاد على نفس الطريق.. ومات مـــنهم علـــى الطريق غير قليل، وعندما وصل الباقون وجدوا أمام الجامع الأزهر رجالاً غلاظاً عديدين، انهـــالوا علـــيهم بالضـــرب، وأمسكوا منهم بكثيرين فساقوهم إلى السجن؟..

وبعد حين التقى الذين ظلوا أحرارًا فـــلاذوا ببيـــت أحـــد التجار، وقرروا أن يزوروا العلماء في دورهـــم.. غيـــر أن العلماء لم يكونوا كما يشتهون؛ فقد اختفى بعضـــهم، لا أحـــد يدري أين اختفى؟ ومضى الآخرون يمتدحون عدل الحكومة التقية النقية وصلاحها..! وآثر بعضهم العاقبة فلم يعد يتكلم! ولقد تكلم واحد منهم فحكم عليه العلماء الرســـميون بـــالكفر، وحكم عليه القضاء بالسجن!

واقترح واحد من الصناع على المجتمعين أن يمضوا إلى جريدة "التجارة"، ليقابلوا "أديب إسحق"، فقال لهـــم موظـــف صغير كان قد فُصِل وشيكًا: "لقد عطلت الحكومة جريدتـــه، ولكن تعالوا إلى باب الخلق لنبحث عنه في المقهى".

كانوا عشرة رجال من الفلاحين، والصناع، والتجار، وموظفًا صغيرًا، ومضوا يترنحون على الطرقات بخطوات ذاهلة؛ كأنهم يحملون فوق الظهور أثقالاً أقبلوا بها من مكان بعيد. والحق إنهم على مدى أجيال طوال قد حملوا في الصدور منهم وعلى الظهور كثيرًا من الأهوال والأثقال! ولم يجدوا "أديب إسحق".. ولا المقهى! فقد أغلقته الحكومة، واعتقلت صاحبه، وعماله، وزبائنه...

ودب في نفوسهم يأسٌ ممضٌ.. إلى أين يتجهون؟ لا أحد يستطيع أن يوجه خطواتهم.. وقال واحد من الفلاحين: "سنعود إلى قرانا بإذن الله!". غير أن تاجرًا صاح فيه: "اسكت!... تعالوا معي إلى منزل، إن جارنا لطفي بك"..

***

وجلسوا ينتظرون "البك" في حجرة فسيحة، تطل على حديقة المنزل.. كان هو منشغلاً إذ ذاك بالحديث مع اثنين من زملائه الضباط، ومعهم ثلاثة من الموظفين.. "إن الحكومة لتمضي مع هؤلاء الموظفين جميعًا على سياسة عجيبة حقًا... فهي تدفع لهم أجورًا يواجهون بها نفقات الحياة..

ولئن ارتفع صوت واحد منهم بالشكاية، لوجد نفسه على الفور في الطريق!.

ولقد اضطرتهم الحكومة بأسلوبها هذا إلى أن يرتشوا، فأصبحت مصالح الناس لا تقضي إلا إذا دفعوا الثمن.. أما الذين تأبى عليهم ضمائرهم أن يرتشوا، فليموتوا من الجوع..

فإذا هاجمت إحدى الصحف هذا الفساد العريض أُلقي بصاحبها في السجن...

وهي لا تسمح لهم بأن يتحدثوا في السياسة، أو يشتغلوا بها، وإنهم ليرون الإنجليز يتسللون إلى كل مرفق، ويشعرون كمواطنين بأن عليهم مسئولية تنبيه الشعب إلى هذا الخطر، الذي يوشك أن يخنق الوطن. ولكنهم محرومون حتى من هذا الحق!.. حق الذي تعذبه النار في أن يصرخ!

ولقد شعرت الحكومة منذ حين بروح تمرد على هذا الوضع، فأخذت تفصل الموظفين بلا حساب، وتعين بدلاً منهم أجانب بمرتبات فاحشة!

إن هذا الضغط على أرزاق الموظفين، وهذه القيود الغلاظ على الحريات هي التي تحمي الاستعمار الزاحف، ولهذا

يجب تحطيمها لتصبح مصر للمصريين حقًا.. يجب أن يشعر الموظف أن الوطن يمنحه بقدر ما يمنح هو الوطن.. فهذه البلاد بلاده هو لا بلاد "نوبار باشا" أو "رياض باشا" أو الدائنين!. ومن أجل ذلك فلن يسمح الموظفون بأن يوفر منهم واحد بحجة توفير المال للدائنين!.."

وانتهى الموظفون والضباط إلى قرار.. فنهض "البك" ومضى إلى الحجرة التي ينتظر بها التجار، والصناع، والفلاحون.. ولم يكد يشرف بطلعته المديدة المهيبة، حتى خف إليه جاره التاجر قائلاً: "أسعفنا يا لطفي بك.. الضرائب الجديدة يا سليم بك".. وكانوا جميعًا واقفين، و"لطفي سليم" ينظر إليهم بقامته الفارعة، كفارسٍ سيقدم وشيكًا على عمل نبيل.. ونظر إلى التاجر في رسوخ، وهو يقول: "هل تعلم أنهم وفروا منا ألفين وخمسمائة رجل!؟ ألفين وخمسمائة ضابط، سيجدون أنفسهم وأولادهم بلا طعام!... فرد الموظف المفصول: "والمئات الأخرى من الموظفين المدنيين؟". فصرخ أحد الفلاحين: وأين تذهب الضرائب التي تدفعها؟! الضرائب يا بك .. أنقذنا يا بك!"

وقال لطفي سليم: "في الغد سندبر نحن الأمر بإذن الله.. سنذهب إلى المالية"... فقال الجميع: "إن شاء الله". وانصرفوا في تلك الليلة من فبراير.

***

وفي الصباح تحرك ستمائة ضابط من المسرحين إلى وزارة المالية، على رأسهم البكباشي" لطفي سليم"، المدرس بالمدرسة الحربية.. وكان وزير المالية إذ ذاك إنجليزيًا، فرضته مصالح الدائنين. ولم يكن "خديوي مصر" حفيًا به على الإطلاق؛ فهو الحسيب والرقيب على كل التصرفات المالية والشخصية للخديوي.. وللدولة!

وفي الطريق إلى وزارة المالية، مر الضباط على المجلس النيابي.. وكان نظام الانتخابات إذ ذاك لا يسمح بأن ينتخب الناس نوابًا يمثلون مصالحهم الحقيقية. ومن أجل ذلك فلم يصحبهم غير أربعة من النواب، امتطوا ظهور الحمير، وتقدموا صفوف المظاهرة.

كان هؤلاء النواب يرون مع سواد الشعب الموظفين ورجال الجيش؛ أن هذه الوزارة تحكم باسم الدائنين ولمصلحتهم وحدهم، وأنها يجب أن تزول ... وكانوا

يطالبون أيضًا بإطلاق الحريات العامة للمصـــريين، وبـــأن تيسر الميزانية لخدمة طبقات الشعب التي تتحمـــل العـــبء الأكبر من الضرائب.

ومضت المظاهرة يحيط بها الناس من كل جانب هاتفين: "الغوا الضرائب". وقابلت المظاهرة عربـــة "نوبـــار باشـــا"، فأحاط به المتظاهرون.. وقبل أن يبدأوه الحـــديث استشـــاط غضبًا أمر الحوذي أن يلب بسوطه ظهور الخيل والناس!

وهوى الحوذي بســـوطه علـــى الجيـــاد فهـــوى عليـــه المتظاهرون بأيديهم، وألقوه على الأرض! .. وروع "نوبـــار باشا"، وملأه الاشمئزاز من هذا الأسلوب الذي يعامـــل بـــه الضباط والنواب حوذي عربته؛ فصرخ فيهم: "انصرفوا أيها الفلاحون".. وانهمرت من فمه الشتائم.. فحمله الثائرون هـــو الآخر وألقوه على الأرض إلى جانب الحـــوذي، والأحذيـــة تتناوله من كل سبيل..

وأقبل الوزير الإنجليزي إذ ذاك فانهـــال بعصـــاه علـــى المتظاهرين، غير أنه لم يكن أســـعد حظًـــا مـــن "نوبـــار"، ولا الحوذي؛ فقد جذبه الثائرون من لحيته، ومرغوا الأرض

ببدنه الصلف، ثم تقاذفوه كـــالكرة.. وأخيـــرًا ســـحبوه هـــو و"توبار"، ومضوا بهما إلى داخل قصر الوزارة.

وصادفوا "رياض باشا" فـــي تلـــك الأثنـــاء فســـحبوه .. واقتحموا أبواب مكاتب الوزارة واحتلوها، ووضعوا الرجال الثلاثة في حجرة جعلوا منها سجنًا.

حدث كل هذا في سرعة خارقة بين التهليـــل وصـــيحات الشماتة والفرح، وكانت الأنباء تطير بثورة الضباط، فتنحدر المئات والمئات من الشوارع والأزقة والـــدروب.. لتلتقـــي بثورة الضباط..

وسمع القنصل الإنجليزي بالقصة، فهرول إلى "الخديوي" مستنجدًا.. فأسرع الخديوي إلى الثائرين... وإذ رآه النـــاس دوت الهتافات من كل جانـــب، تطالـــب بإلغـــاء الضـــرائب وإطلاق الحريات، وتحسين مستوى الحياة..

وتقدم الخديوي يسأل الضباط عما يريدون، فقـــال رجـــل مجهول: "نريد إقالة هذه الوزارة.. نريد الطعام للجميع! نريد الحرية يا أفندينا". وطلب الخديوي مـــنهم أن يفرجـــوا عـــن الثلاثة المسجونين أولاً، فلم يجب أحـــد، وســـكت الخـــديوي لحظة... ثم ارتفع صوت: "حققوا مطالبنـــا أولاً". وجاوبـــه

صوت آخر: "نريد مرتبات كافية للموظفين.. أعيدوا الـذين فصلوا من الجيش والوظائف".

وقبل أن يجيب الخديوي دوت طلقة رصـاص.. وتقـدم واحد من الضباط يريد أن يمسك الخديوي من ذراعه، فسحب الخديوي ذراعه بعنف، وأمر رجاله أن يفرقوا المتظـاهرين بالقوة.. ودارت معركة رهيبة قصيرة، وسـقط عـن يمـين الخديوي "التشريفاتي" الخاص صريعًا بطعنة سيف قاتلة.

وصاح الخديوي في الضباط أن يهـدأوا، وأن يطمئنـوا، وأنه هو المسئول أمامهم عن تحقيق كل مطالبهم، ثم انصرف الخديوي ليوقع مرسومًا بعزل "نوبـار".. ومرسـومًا آخـر بإعادة الضباط..

وأفرج الثوار عن المسجونين الثلاثة.. ولكنهم لم يكونـوا بعد وزراء.. وبعد شهر واحـد أُطلقـت الحريـات العامـة للمواطنين.. غير أنها أُطلقت بعد الأوان؛ ذلك أن الاستعمار الزاحف كان قد وطد سلطانه من خـلال مرحلـة الطغيـان السابقة، التي كمم فيها "نوبار" كل الأفواه..

واصطدم الاستعمار أول ما اصـطدم بهـذه الحريـات.. ولم يعد في مقدوره أن يترك مصر للمصريين.

الرأس الثانية

انطلقت الجياد الفارهة القوية بالعربة المذهبة خلال طرقات مليئة بالغبار، والذباب، والرجال المهزولين.

كانوا شاردين كفئران سفينة فقيرة، وهم يرسلون نظراتهم المتعبة إلى الخيل الجيدة العلف، وإلى الأشياء التي تلتمع على بدن السيدة الشابة داخل العربة، ويتساءلون في حيرة: "من عساها تكون؟"

وأخذت "شمس" تقبض نظراتها عنهم وهي ترتجف، فلم تكن ترى في كل الناس غير كائنات مزعجة تتقن الحسد، وإفراز العرق الكريه!

وإنها لتعود اليوم إلى مولاها بعد غياب أسبوع كامل، وبها من الشوق إليه ما يفلح كل قطعة من جسدها البض البديع. وإنها لتعود منتصرة على أي حال، فقد أحرزت من النجاح في مهمتها ما لم يكن يستطيعه مائة داهية من رجال السياسة والحرب!

وكان مولاها ينتظرها معذبًا، ضيق الصدر.. وقد جلس بين جواريه وحاشيته، وبالقرب منه "قشتمر"، فأخذ يربت على خده قائلاً: "أين أختك؟.. أين شمس؟.. لماذا لم تعد

بعد!؟" فقالت جارية فاتنة: "ما هذا كله يا مـــولاي؟.. نحـــن هنا!". وضحك الجميع حتى "قشتمر"، ولكن مولاهم لم يكـــن مهيأ النفس للضحكات، فصاح: "أتمزحون؟.. ألا تعرفون بعد إلى أي حد يتوقف مصيرنا جميعًا على نجـــاح شـــمس فـــي مهمتها!؟ لو أن هؤلاء الفلاحين ظلوا متحدين، فهي النهايـــة إذن! لقد ملأتهم السنوات القليلة الماضية بالكبريـــاء والعنـــاد والأحلام.. فمنذ استطاعوا طرد الفرنسيين، وهم يحلمون بأن يحكموا أنفسهم، ولئن لم ينجح شيخ البلد فـــي إثـــارة الفتنـــة العنصرية بين العرب والفلاحين؛ فلن تقوم لنا نحن الأتـــراك قائمة بعد. إن كل شيء يغلي اليوم، فقد وحدت الثورة بيـــنهم منذ سالت دماؤهم معًا، مختلطة بتراب الأرض التي يدافعون عنها! ومع ذلك فقد كان العرب منهم يحتقـــرون الفلاحـــين، والفلاحون يشمئزون من العرب. ومن هنا يجب أن نشـــعل نار الفتنة لنحول التيار عنا!.. إنكم لتخفـــون علـــي أشـــياء خطيرة، ولكنني أعرف جيدًا أن مواكبهم الشائهة، التي يختلط فيها عرقهم العفن بغبار الطريق تنطلق في كل يوم بصـــباح مشئوم، مطالبة برأسي.. رأسي أنا!.. إنكم جميعًـــا تكـــذبون علي ولكن.. ولكن أين شمس؟. لماذا لم تعد شمس؟!"

وكانت" شمس" قد بلغت القصر، فأسرعت إلى مولاها تزف إليه البشرى، في صوتها الذي أرهق نغماته السهر والشراب. لقد تم كل شيء على ما يرام!".

فقال: "كيف؟ ... كيف يا شمس؟" ومد ذراعيه إليها، فاندفعت نحوه تقبله.. وبدأت تروي له كل ما حدث. لقد استبقاها شيخ البلد العجوز الماكر طويلاً، وفي كل صباح كان يقول لها إنه في حاجة إلى ليلة أخرى ليفكر، ولقد رأى شيخ البلد أول الأمر أن إثارة الخلاف بين العرب والفلاحين غير ممكنة إلا في الريف، أما في القاهرة فمن المستحيل عليه أن يعرف من هم العرب، ومن هم الفلاحون.. وأهل القاهرة أنفسهم لا يعرفون، ومن أجل هذا فسيثيرها فتنة بين المسلمين والأقباط! وقد استدعى بالفعل رئيس جماعة الأذكار والأناشيد الدينية، وهي جماعة متعصبة حماء، يسيطر على عقولها جنون العظمة والمراهقة، والأوهام الغامضة عن المجد القديم.

ثم لوت "شمس" بدنها المثقل بالمتاع الأنثوي، وغمر وجهها الأبيض نور عجيب، واستمرت تقول: "آه يا مولاي لو شهدت هذا العجوز اللطيف، وهو يستقبل رئيس هذه

الجماعة، لقد وضع أمامه سيفًا ومصحفًا، ثــم أخــذ يحدثــه ببراعة عن فساد أمور الدين والدنيا، وعن المناصب الخطيرة التي يتولاها الأقباط، ويُحــرم منهــا النــابهون كأعضــاء الجماعة!.. ثم أخذ يهمس في أذنه بكلام طويل عــن المجــد الذي ينتظر هذه الجماعة.. والمناصب التي يجب أن يحتلهــا كبار أعضائها.. ولم أسمع من مخبئي بقية الحديث، ولكنــي رأيت رئيس الجماعة يهز رأسه وقد انبسط وجهه المــتقلص المتشنج! وعندما نهض، كان الشيخ قد وهبه غلامًا وكيسًا من ذهب! وحين خرج لم يدعني شيخ البلد الماكر أنصرف، فقد استبقاني ليلة أخرى، وفي الصباح استدعى "سركيس"، وكلمه بتأثر عن مجد الفراعنة.. وعن المناصب التي يحــرم منهــا الأقباط أصحاب البلد، بينما يتمتع بها أحفاد العــرب الغــزاة وحدهم!. وتجهم "سركيس" وأوشك أن ينصرف، وهو يبــدي استنكاره لهذا الذي يسمعه. ولكن شيخ البلد همس في أذنــه وهو يخرج أن يحذر أبناء ملته من مذبحــة ســتحدث عــن قريب!".

فصفق صاحب القصر: "ما أبرع هذا.. ولكن متى يتم هذا يا شمس؟

فقالت شمس: "غدًا إذا أرسلت إليه خمسة أكياس من الذهب! إنه ليجتمع الآن بكثيرين من جماعة الأذكار والأناشيد الدينية!".

ونهض صاحب القصر ليأمر بإرسال أكياس الذهب إلى شيخ البلد!.

***

وفي الغد كان مقررًا أن يجتمع الناس في مسجد كبير، لينحدروا منه إلى قصر الوالي يطالبونه بأن يعتزل. وكان الناس في تلك الأيام يجتمعون في المساجد والكنائس، ثم تقذف بهم الأماكن المقدسة إلى حرم الكفاح في الميادين، والطرقات، وأمام قصور الطغاة!

غير أن شيخ البلد كان قد دبر كل شيء بمهارة. ففي الصباح الباكر قبل أن يزدحم الناس في المساجد والكنائس مر ثلاثة من الشرطة بحانوت الحاج مصطفى، وهو رجل طيب يجله أهل الحي، واغتصبوا من الحانوت أقمشة وروائح، ثم قتلوا الشيخ وغلاميه، وأعطوا المسروقات "لجرجس" و"مرقص".. واختفى رجال الشرطة على الفور،

ولم ينسوا قبل أن يختفوا أن يهمسوا بكلمات "للشيخ علـــي"، الذي كان يقف غير بعيد.

وصرخ الشيخ علي بصوت مرتفع: "يا مسلمين.. الحقــوا يا مسلمين.. مرقص قتل الحاج مصطفى، ونهب تجارته!".

وصرخ مرة ومرة.

وطبقًا للخطة المرسومة؛ انقض "جرجس" علـــى الشـــيخ علي، العضو الموقر بجماعة الأذكار، فصفعه، ثـــم انتـــزع عمامته ووطئها بحذائه..

وتجمع رجل من هناك ورجل من هنا، بينما لاذ "مرقص" و"جرجس" بالفرار أمام عيون الناس الذين وقفـــوا جـــزعين ينصتون للشيخ علي وهو يروي لهم قصة مصـــرع الحـــاج مصطفى وولديه، وعن البضائع التي سرقت لتـــذهب إلـــى خزانة الوالي!

وفي تلك الأثناء كان خطيب في المسجد يحدث الناس عن واجبهم في النضال.. وكيف ينبغي لهم أن يحاســـبوا الـــوالي العثماني وجنوده، على الفساد العريض الذي يملأ الأرض.. وكان الرجل قد انتهى من حديثه إلى حض الناس على انتزاع أقواتهم من أنياب الوالي، وأظفار أعوانه الملطخة بالدماء!...

فهم الآن ينتظرون إشارة البدء، لينقضوا على قصر الوالي وتجارته.. وفي تلك الأيام كان الضيق والغلاء ينهشان أعماق كل نفس، والفاجعة هي الشيء الوحيد الذي تصافح به الحياة إحساس الناس. وكان كل رجل أو امرأة يريد أن ينفجر في شيء ما... ولم يكن أحد يستطيع على الإطلاق أن يحتمل جاره، فالناس حتى الأصدقاء منهم، يتشاجرون لأتفه الأسباب...

وفي لحظات كهذه تموت في النفس الإنسانية أجمل معاني الحياة.. يموت الحب، وتموت السماحة ويصبح الكيان البشري مجرد شحنة من الكراهية على استعدادٍ تام لأن تنفجر في وجه الذين جعلوا من الحياة مأساة.. فإن لم تنفجر فيهم انفجرت في أي شيء آخر!

وهكذا كان كل رجل في المسجد يشعر في أعماقه بطاقة رهيبة، ويشعر أن جاره هو أيضًا طاقة أخرى مساعدة، ومن هنا كانت الوحدة بين هؤلاء الذين ربما لم يعرفوا بعضهم من قبل، والذين لم يخطر لواحد منهم أن يسأل أخاه من هو؟ ولا كيف يعيش؟ ولا من أي دين أو أبٍ ينحدر؟.. إنهم جميعًا

لحاملون نفس الأثقال، ويخشون نفس المصير، ويهتزون بالأمل الواحد، وهذا يكفي!..

وإذ بدأ الناس يتحركون، اندفع "الشيخ علي" إلى المسجد، وفراغ المسجد نفسه كأنه وتر مشدود!

كان عاري الرأس، ولقد اختاروه رجلاً يحسن الكلام! ومضى في صوت متهدج يتحدث عن الخونة الذين يسرقون لحساب الوالي.. ثم تحدث عن مصرع "الحاج مصطفى" وولديه.. وروى قصة عمامته التي وُطِئت بالنعال وهو يبكي.. وطالب بالثأر للدين من جرجس ومرقص وأهل بلدتهم، فهم الأعداء الحقيقيون، وهم شر عداءً من الوالي نفسه، وإن جرجس ومرقس لفي الكنيسة المجاورة، فلتهَاجم الكنيسة إذن!

وكان بين الجالسين في المسجد غير واحد من جماعة الأذكار.. وخرجوا هم أيضًا مطالبين بالثأر.. وحاول خطيب المسجد أن يتكلم.. ولكن جماعة الأذكار كانت قد جعلت الناس في تلك اللحظة ينسون تمامًا أنهم في ثورة ضد الأتراك، والأتراك وحدهم هم الذين سيكسبون من كل هذا.

وكان الذين في الكنيسة المجاورة قد انحدروا إلى قصر الوالي ومخازنه باسم الثورة، وفوجئ حارس الكنيسة بالنار تحيط به، وبرجالٍ يقبضون عليه ويلقونه في النار! ولم يستطع الرجل العجوز أن يفهم شيئًا، ورأى من خلال الدخان وهو يحترق كثيرًا من الوجوه القاسية المتجهمة التي تضحك في وحشية، والتي كانت بالأمس سمحة حزينة تبتسم في إشفاق!... وطافت به إذ ذاك صورة المسيح رمز الصبر والرحمة وشهيد السلام.. وخيل إليه وهو ينتهي أنه يعيش عبر التاريخ، في بعض عصور الشهداء والقديسين!

***

وفي الليل كان قصر الوالي يصخب برنين الكئوس والضحكات، وكان هذا يحدث كل ليلة حتى مر أسبوع.. وفي مثل ليلة الحادثة، وقد تمدد الوالي على أريكته إلى جوار "شمس"، بينما انعقد ضباب المخدرات الأزرق الشفاف على الرءوس، والجواري يرقصن على خفق الشموع، والخمر الفاخرة تسيل على أجسادهن. قال الوالي لشمس ويده على ظهرها العاري: "ألا نرسل لشيخ البلد مكافأة جديدة!".

فتمايل أحد الجالسين بالقرب منه، وقال بلسان أثقله الخدر والشراب: "ولكن لم يعــد لــدينا مــال!"، وضــج الجميــع بالضحكات.. فقال الوالي: "إذن اجمعوا من غد عشرين كيسًا من أهل القاهرة.. سموها ضــريبة.. الـــــ .. أي شـــيء.. وادفعوا له عشرة أكياس! إنه خادم أمين.."

فقالت شمس: "إنه داهية يا مولاي!.. لقد أخذ منذ أمــس يزور رجال الدين من الأقباط والمسلمين، ويــدعوهم إلــى تهدئة الحال!".

وضحك الوالي طويلاً، وهو يقول: "هذه هــي السياســة يا شمس! إنه يذهب باسمي أنا أيضًا".. قالت شمس: "لن تقوم للثورة قائمة بعد .. إنهم يتناحرون منــذ أســبوع كامــل!". وإذ أخذ الوالي يقبلها شاكرًا، قال قشــتمر بزهــو: "الفضــل لشمس.. لأختي شمس!". غير أن رئيس الشرطة دخل فجــأة وهو متجهم.. فقال له الوالي، وهو يتطوح على أريكته: "ماذا يا وجه النحس؟.. أهذه هيئة تدخل بها على مجلس شــراب؟" فقال الرجل في صرامة: "إن طلبة الأزهر مجتمعون علــى شر".

فقال الوالي مستخفًا: "وماذا يريد الصغار؟".

فقال رئيس الشرطة: "ومعهم كثيرون من جماعة الأذكار".

فقالت شمس: "حسنًا..". فقال رئيس الشرطة: "ومعهم أيضًا شباب الأقباط!". فرد الوالي عليه: "ألم يقتلوا بعد؟! اذهب.. اذهب.. ودعنا.."

وذهب رئيس الشرطة، ثم عاد من فوره. إن الأنباء ليست طيبة إلى الحد الذي يجعلهم يبتهجون هكذا.

فبعد أن أحرقت الكنيسة أخذ "سركيس" يطوف بالكنائس الأخرى يدعو الأقباط إلى رد العدوان. واجتمع كثيرون منهم بالفعل، واستعدوا لرد العدوان، غير أن بعض شبابهم تساءل: "وماذا نصنع بالثورة؟" ولم يجدوا جوابًا.. وعادوا يسألون: "وقضيتنا!، قضية استقلالنا وحرياتنا؟ وهذا الوالي الذي يفسد في الأرض.. أنتركه لندخل في حرب دينية؟."

وبينما كان شباب الأقباط يتناقشون أخذ طلاب الأزهر في المسجد الكبير بعد صلاة المغرب يعلنون استنكارهم للعدوان البشع.. يومًا بعد يوم، وانضم إليهم كثيرون من جماعة الأذكار والأناشيد الدينية.. وبالأمس وقف على المنبر واحد منهم، واعترف بأن صلات كثيرة حدثت بين شيخ البلد

وشيخهم، وأن الشيخ علي نفسه حضر اجتماعات في بيت شيخ البلد، وأعلنوا براءة الدين وبراءتهم من هذه الجماعة.. وفي عصر اليوم استطاع عشرون من شباب الأزهر وجماعة الأذكار أن يهاجموا بيت الشيخ علي، وحملوه حملاً إلى الأزهر، وأمام التهديد الحانق بتمزيق جسده اعترف الشيخ علي بكل شيء..

وفي لحظات خاطفة حضر بعض شيوخ الأزهر، ومضت مظاهرة إلى الكنيسة الكبرى التي كان سركيس يهيج فيها الخواطر.. وتردد من خارج الكنيسة هتاف واحد: "الدين لله والوطن للجميع"، ومضوا جميعًا إلى الجامع الأزهر.. ووضع الأقباط على رءوسهم عمائم الشيوخ، ولبس كثيرون من شباب الأزهر قلانس رجال الدين المسيحي.

وشهد المسجد العتيق فيضًا من عواطف الإخاء لم يشهدها من قبل، ومضى الأقباط والمسلمون يتعانقون.. بينما وقف شيخ عجوز على المنبر يعلن أن المسلمين سيتبرعون لبناء الكنيسة من جديد، على الرغم من الجوع الذي يعيش فيه الجميع!.. وقال أحد التجار: "إنني أتبرع للثورة والكنيسة بنصف ما في حانوتي"، ثم انهالت التبرعات.. وإذ ذاك تقدم

فتى أزهري يطالب بمحاكمة الذين أثاروا الفتنة، وأفتى بأن دماءهم مهدرة بحكم الإسلام، وتعالت في المسجد صيحات التكبير، وهتافات للوطن.. والثورة!

لقد وضح عندهم جميعًا الساعة؛ أن الذين دبروا الفتنة هم أعداء الثورة، فانسكبوا صفًا واحدًا من المسجد إلى شيخ البلد، يطالبون برأسه.. برأس الوالي.

وإذ سمع الوالي من رئيس الشرطة هذه الأنباء؛ انتفض مروع القلب، وصاح في شمس: "اذهبي إلى شيخ البلد سريعًا.. اقتليه بهذا الخنجر قبل أن يقع في أيديهم، فيبوح بكل شيء!".

وانطلقت الجياد الفارهة بالعربة المذهبة خلال الطرقات، ولكن الطرقات كانت مزدحمة بالمشاعل، والرجال المتوقدين.. ولم تستطع "شمس" أن تقبض نظراتها منهم هذه المرة، ولكنها ظلت ترتجف، ورائحة العرق الكريه تقتحم عليها العربة، ورُوعت برأس "شيخ البلد" تخفق أمامها على رمح طويل. وكانت الجماهير الثائرة تطالب إذ ذاك بالرأس الثاني!.

دخول الظافرين

عادوا صفرًا مهزولين، يقطر الرعب من وجوههم كأشباح الزمان القديم.. أما الآخرون فقد استلقوا هناك، على رمال الصحراء، خرسًا ممزقين، ينزف من أشلائهم سر مأساة هذا الزمان الجديد.

على أن أسرار المأساة أخذت تضطرب بين الألسنة والآذان في كل مكان. وعندما رواها الذين عادوا وشيكًا من "التل الكبير"، اصطدمت الأرض والسماء باللعنة على الخونة، وسكب العجائز الدموع، وفغر الصغار أفواههم الغضة مذهولين.

ولم يعد شيء على الإطلاق خافيًا على أهل القاهرة. "فإبراهيم" يروي نفس قصة "عبد الله"، و"فرج" يرتعش عندما يحكي، تمامًا "كالأسطى علي"، و"الأسطى علي"، كالآلاف في المدن والقرى.

وقد عاد "الأسطى علي" يلهث من الحنق والإعياء، ويفتح بدعائه في أهل الحارة فحيحًا مؤلمًا أن يخرجوا جميعًا إلى مداخل القاهرة، ليردوا عنها جيش الاحتلال الذي يزحف، وفي طليعته الخيانة؛ كلبه الحارس الأمين.

ولم يكن "الأسطى علي" قد غاب عن القاهرة أكثر من شهر واحد، أغلق فيه دكانه، وحمل البندقية مع جيش عرابي، تاركًا طفله وزوجته، وأمه التي ما زال يواسيها منذ أعوام طوال، وما يرقأ للعجوز دمع منذ مات زوجها وهو يحفر القناة.

كانوا في القرية إذ ذاك.. وكان "علي" صغيرًا لا يستطيع أن يحمل المعول، ولعلهم من أجل هذا تركوه يعيش. وما أفظع ما عاش بعد ذلك، ظل وهو يلعب في الطين – مع الأطفال والذباب – يشاهد جنودًا يهبطون فجأة، فيختفي الأطفال من الطرقات، وترتجف القرية بأسرها من الرعب، وهي تهمهم: "الحكومة! الحكومة". ثم يتدحرج عشرات الرجال على الطرقات الخالية؛ الرءوس منكسة، والأيدي مشدودة إلى الحبال، والسياط تشوي الظهر، وتدفعهم دفعًا إلى بعيد.... ليحفروا القناة.

ولقد تعلمت القرية أن الذين يذهبون إلى القناة لا يعودون، ومع ذلك فكلما هدأ نحيبها بعض الشيء؛ عادت السياط تفرقع فوقها من جديد.. ويمضي موكب آخر إلى حيث لا يعود.

ولن ينسى "علي" أبدًا كيف كان نساء القرية يلتقين على أبواب الدور في الصباح، فيتذاكرن الرجال، ويبكين حتى يرتفع النهار.

لقد عاش بينهن يبكي كل صباح، حتى أخذته أمه ذات يوم إلى خارج القرية.. إنه ذلك الطريق الطويل الضيق وسط الحقول.. لقد تعثر في منخفضاته، وبكى فحملته أمه، ثم عادت تلقيه إلى جوارها على الأرض، وهي تستريح من عناء السير، حتى انتهت بها الرحلة إلى ميدانٍ فسيح، يستلقي تحت أقدام "قصر الباشا".

واستطاعت بعد نقاشٍ طويل مع رجالٍ غِلاظ أن تدخل إلى القصر.. وكان الفلاحون يقولون عن سيدة هذا القصر إنها امرأة طيبة تعرف الله، واستقبلتهما السيدة في إشفاق وترحاب، غير أنها سحبت يدها في سرعة واشمئزاز من يد أمه التي شرعت تقبل اليد البضة في خشوع وضراعة. لقد قالت أمه لسيدة القصر إذ ذاك كلامًا طويلاً ما زال يذكر منه كلمات؛ "الجوع"، و"الفضيحة"، و"الستر". وردت عليها السيدة بكلامٍ لم يفهمه هو، فقد خيل إليه أنها تتحدث بلغة أخرى غير لغة أمه والفلاحين!

وأقامت أمه في القصر. ولم تعد تلبس الجلباب الريفي الأسود؛ إذ دفعوا إليها بثياب أخرى ملونة. وبعد حين سافرت سيدة القصر البدينة البيضاء إلى القاهرة، ومعها خدم كثيرون بينهم أمه.. وفي القاهرة رأى السقف المذهب، والجدران التي تزينها الصور، والأرض تلمع من تحت قدميه.. وذاق خبز القمح..

على أي حال؛ لقد أصبح الآن شابًا يتقن صناعة الأحذية، وقد اتخذ له دكانًا، وأنقذ أمه من الخدمة في القصر. وقد أصبح أبًا بدوره لا يسمح لابنه بأن يلعب في الطين، وفي عزمه ألا يمضي أبدًا في الطريق الذي مضى فيه أبوه.

وإنه ليجلس كل مساء على مقهى يجاور دكانه.. وفي المقهى تعرف بشبان يتحدثون دائمًا عن صحيفة سرية تكتب كلامًا يبهره حقًا... إنها تحذر المواطنين المصريين من كبارهم الذين يشاركونهم عداء تركيا.. فقد كان هؤلاء إلى عهد قريب أتباعًا لتركيا، وهم يتمتعون بكل ما في الطغيان التركي من قسوة وجمود... ولكنهم أذكياء، فتركيا الإمبراطورية الهرمة تتهاوى اليوم حجرًا بعد حجر، بينما تزحف إنجلترا بكل فتوتها وغناها الواسع لتأخذ مكانة تركيا

في مصر.. ولئن كانت فرنسا تنافسها؛ فإن إنجلترا لا تبالي كثيرًا بهذه المنافسة؛ فهي أضخم قوة اقتصادية في العالم، وقد استطاعت أن تشتري حصة مصر من أسهم قناة السويس، وقد منحت مصر كثيرًا من القروض بدعوى تحسين حالتها الاجتماعية أول الأمر، مؤكدة أن القرض ليس إلا مساعدة اقتصادية، ثم بدأت تزحف لتراقب تشريعات مصر وسياستها، بدعوى ضمان تسديد الدين، وحماية الدائنين.. لا أكثر.

وإن المصانع الإنجليزية لتغري السادة المصريين بأنها هي وحدها التي تستطيع أن تشتري منهم كل ما يزرعون من قطن، وتمنحهم بهذا أرباحًا ضخمة لا تستطيع تركيا المنهارة أن تحققها لهم! وأصحاب هذه المصانع يملكون جهاز دولة، تملك بدورها قوة عسكرية لا نظير لها... وإن لها من الأسلحة أفتكها وأحدثها، وهذه القوة العسكرية تستطيع وحدها أن تحمي حقوق هؤلاء السادة في أرضهم الواسعة، وتستطيع على أي حال أن تحطم كل المحاولات التي تهدف إلى الانتقاص من امتيازات السادة، أو القضاء عليها... إنها لتمكنهم من القبض على الفلاحين بيدٍ من حديد، وتمكنهم من

القضاء على الأفكار الثورية التي تغلي في صدور المثقفين، والتجار، وأرباب الصنائع، وكل الذين هزتهم مبادئ الثـــورة الفرنسية، وصيحات "جمال الدين الأفغاني".

وكانت هذه الصحف السرية تحرض الجماهير علـــى أن تعلن الثورة على هذه الفئة من المواطنين، التي تتآمر مع كل غريب يدعم لها ثروتها. ويوسع لها الميادين التي تستغل فيها الآخرين.

وكانت الحلقات الضيقة تطوق هـــذه الصـــحف الســرية وحدها في أول الأمر، ثم ما لبثت أن راحت تتسع شيئًا فشيئًا فتضم التجار، وأصـــحاب الحـــرف، وأصـــحاب العقـــارات الصغيرة، والعلماء والمثقفين.. وهي في كـــل يـــوم تـــزداد اتساعًا كالدوامة في الماء الهادئ، لا شـــيء يوقفهـــا علـــى الإطلاق.

***

وعندما نشبت الثورة العرابية اتضح لي ولآلاف غيره أن بعض الذين قاموا يندِدون مـــع الحركـــة الوطنيـــة بطغيـــان الشراكسة؛ وقفوا اليوم يدعون لإنجلترا!... وعبيد المصـــالح يستطيعون دائمًا أن ينبذوا الصيد الهرم، حين يلوح لهم صيد

آخر أكثر مالاً وأعز نفرًا، وهكذا التقطت إنجلترا بعض من كسبوا ثقة الناس ليرددوا على الناس رحمة المولى الجديد.

وكان الطيبون من أهل مصر، يطالبون جماهير الشعب على الدوام بأن تقف صفًا واحدًا أمام عدوان الترك، غير أن الثورة في اضطرامها قد أوضحت للناس أن هناك فئة لا بد أن تعتزل الصفوف؛ فقد زحفت النشرات الرسمية تطلب من أهل مصر أن يتركوا الإنجليز ليدخلوا آمنين، فما أقبلوا إلا لحماية السلطات الشرعية في البلاد من العصاة العرابيين! وكان العصاة العرابيون إذ ذاك هم كل مصر! ووجدت مصر نفسها وجهًا لوجه أمام أعدائها المحددين. لقد أعلنوا بالأمس مع مصر غضبهم على الشراكسة، ولكنهم اليوم لا يستطيعون أن يقفوا مع الشعب أكثر مما وقفوا؛ فهم يستعينون بالجيش الأجنبي ليحيي سلطانهم المخيف على الحقوق!.

ومن أجل هذا أفسحوا الطريق أمام الجيش الإنجليزي، فباغت جيش الثورة في التل الكبير. وبدأ الجيش الإنجليزي يتحرك بعد انتصاره الشائن. وتحركوا مع الجيش ليدخلوا القاهرة دخول الظافرين!

وكانت القاهرة تموج بالذين من" التل الكبيـــر"، وتعــض أصابعها من الحسرة والندم.. لكم أخطأت في تلك الأيام!!.

لماذا لم تمض بالكتاب إلى أجلــه عنــدما أصــدر شــيخ الإسلام بيانًا يُعلن فيه أن الحكومة الشرعية – منذ اعتمــدت على الإنجليز – لم تعد في حكم الله صاحبة حق شرعي على مصر؟.

ألم توقع مصر كلها على هذا البيان؟ ألــم يضــع عليــه الفلاحون بصماتهم وأختامهم، وبصمات النســاء والأطفــال أيضًا؟.

لماذا سكتت ثورة الشعب بعد هذا عن أعداء الشعب؟.

إن الدماء الحرة على ثرى الإســكندرية، وعلــى رمــال البحيرة والشرقية؛ ستظل على الدوام تلعــن الــذين خــانوا، والغافلين على السواء.

ومع ذلك فقد بقي هناك ما يُصنع.

وأخذت الأزقة الضيقة ترمي بمن بقي مــن أهلهــا إلــى الروابي المشرفة على مداخل المدينة الكبيــرة.. لقــد أريــد للقاهرة أن تركع بعد حين أمام قدوم المحتل فــوق أو حــال

الخيانة، غير أنها ترفض هذا المصير... ربما غلبت على أمرها لبعض الوقت، غير أنها لن تلطخ نفسها بالوحل أبدًا.

***

وسرت نسمات سبتمبر مثقلة بالزفرات، ثم بدأت تهتز بالأسلحة، يلوح بها الرجال والنساء... وكانوا يهمهمون في عجب: "كيف تطلب منا الحكومة أن نرحب بالإنجليز؟.. كيف نقول إن الإنجليز هم أحبابها"؟

ومن بعيد لاحت عربة مذهبة تلمع تحت الشمس.. وقال رجل: "انظروا إنهم يقبلون؟" وتهيأت السواعد والأبدان، وتقدمت امرأة عجوز إلى قمة الربوة، ثم صاحت بصوتها الحاد: "لا. لا يا أولاد.. إنهم رجالنا!". ولكنها لم تكن تستطيع أن تسخر طويلاً؛ فقد أخذت تلطم وجهها بعد ذلك وهي تكرر: "رجالنا.. رجالنا!".

وكانت بعض الطرابيش المصرية بالفعل تهتز على رءوس رجال الحكومة، والحراس الذين يحيطون بالعربة المذهبة... واحتدم الغيظ الكافر بالقلوب المصرية المعذبة التي تنتظر على الروابي، فتوالت القذائف، وإذ ذاك أسرع موكب الكبار ليشق طريقًا آخر، وترك فصائل عديدة من

جيش الاحتلال تطلق أسلحتها الحديثة الفاتكة على الذين يشوهون جلال الاستقبال!

وعندما قرعت سنابل الخيل أرض القاهرة مطولة بدم شهداء التل الكبير؛ كانت طبول الحكومة تقرع احتفالاً بدخول الظافرين! غير أن هذه الطبول في رنينها العريض الأجوف لم تستطع أن تغمر عويل النساء، وصرخات النكير. وإذ انحنى السادة على يد القائد الإنجليزي في ساحة بعض القصور؛ انحنى "علي" ليلتقط المطرقة الحديدية. وحاول أن يسرع إلى الباب، فسألته أمه: "إلى أين؟ إلى الدكان؟"

ولم يجب "علي". ونظر إلى ولده الذي يلهو، ثم سلمه المطرقة. وترنح قليلاً، ثم اعترف لأمه بأنه لا يحتمل جراحات صدره بعد.!

وهوى علي ينزف منه الدم، بينما كان ولده يلوح بالمطرقة في فضاء الزقاق المترب. أكانت إرادة الثورة تهتز في قبضات الصغير، وأبوه يستلقي ليتخذ مكانه بين الشهداء؟!

تلك الحرب المقدسة

لم يكن في الحقول شيء أخضر على الإطلاق.. غير أن الفلاحين أصبحوا ذات يوم، فوجدوا أرضهم القديمة السوداء مزدهرة بأعواد الذرة الجديدة الصغيرة.. كانت ريانة غضة تضحك.. كالأطفال!

وكأن الفلاحين لم يشاهدوا قبل اليوم هذه الحياة التي تنبت من الأعماق.. فلاح لهم اخضرار الأرض التي اسودت بشقاء أيامهم والليالي؛ كأنما هو شيء جديد عليهم حقاً..!

وبعد صلاة العصر جلسوا على كومٍ من التراب أمام المسجد تحت الظلام، يتحدثون عن الأزمة التي تعانيها القرية؛ فقد كان يجب أن تدبر القرية أمر خمسة قناطير من السمن!.. ولكن القرية وهبت كل شيء.. وهبت كل ما فيها من دجاج وبيض وطعام،. وحتى الشباب، ولم يعد فيها من الرجال غير قلة من الرجال العجائز.. وإنهم ليعجبون اليوم لهذه الأرض الطيبة التي ما زالت ترحم شيخوختهم على الرغم من كل شيء.

وقال فلاح عجوز: "عجيبة يا ناس!" فجاوبه فلاح آخر: "دي بركة الشيخ جودة.. بركة سيدنا الشيخ!".

فنظر "الشيخ جودة" باسمًا، وقال بصوته الهادئ الوقور: "ما بركة إلا بركة سيدنا عرابي.. وبركاته كثيرة بإذن الله!".

فقال الجميع في نشاط مشرق: "أي والله! أي والله بركة سيدنا عرابي.. الله ينصره على الظالمين".

وتحسس "الشيخ جودة" لحيته البيضاء، وهو يتأمل وجوه الفلاحين ضاحكًا مطمئنًا، ثم قال: "الضيق آخره الفرج، والخضرة دليل الخير، فرجت بإذن الله، وإن شاء الله ندبر السمن!".

ورد الجميع في لهفة: "إن شاء الله.. بحق جاه المصطفى".

وأخذ الفلاحون يقلبون أنظارهم بين وجه "الشيخ جودة"، وبين الحقول الممتدة إلى نهاية الأفق. إن المعركة لتدور هناك وراء هذا الأفق، وإن لهم في المعركة لإخوة وأبناء وآمالاً عراضًا. ستفتح لهم هذه المعركة عالمًا جديدًا من الراحة!.. لو أن "عرابي" ينتصر فلن تمر عليهم إذن أيام جديدة من الشقاء.. لن يعرفوا الجوع بعد.. ولن يساقوا مرة أخرى – لا هم ولا أبناؤهم – تحت وهج الشمس وقرع السياط، يضربون بفئوسهم الصخور، ومن حولهم يتساقط

الموتى، والعرق يختلط بالجثث كتلك الأيام المشئومة في حفر قنال السويس!

لو أن عرابي ينتصر!..

لقد عاد "الشيخ جودة" أخيرًا من ميدان القتال يحمل إلى القرية أطيب الأنباء، ولكن يطالبها بخمسة قناطير من السمن!.

و"الشيخ جودة" رجل مبارك تعرفه هذه القرية والقرى المجاورة، وهو يطوي حياته مثبت العين على الضريح الذي يقيم فيه أجداده ليصبح مثلهم ــ بعد عمر طويل ــ وليًا من أولياء الله.

وفي الأيام الخالية كان "الشيخ جودة" يشهد بنفسه كيف يضطرب كل شيء في القرية التي هبط عليها ببغلته الفارهة؛ فالفلاحون يتسابقون على يديه يقبلونهما، والسعيد من استطاع أن يصب له الماء عند الوضوء، أو يحمل الماء عنه، ولا يكاد المساء يزحف على القرية التي ينزل بها "الشيخ"، حتى تمتلئ سماؤها بالدخان مثقلاً بعطر الشواء والأوز!

ولكن الأحداث الجسام تهز القاهرة والإسكندرية جميعًا. ويصب الإنجليز فجأة رصاص مدافعهم على الإسكندرية

الآمنة، ويقتلون الأطفال والنساء والرجال بغير حساب، ويهدمون مساجد الله!

وتطرب حكومة مصر لهذا، وتطالب الإنجليز بمزيد من الأعمال الوحشية لتحمي نفسها من شعب مصر الذي أصبح كله في تقديرها مجموعة من العصاة!. وهكذا استعارت أظفار الأسد البريطاني، وأخذت تنشبها في عنق البلد الأمين!

ولم تكن في مصر إذ ذاك سفارة أجنبية تستطيع أن تطلب من أحد رجال الدين حكمًا على الشبان الوطنيين بأنهم يعملون ضد تعاليم الإسلام، ولو طلبت لما وجدت؛ فقد كان رجال الدين في ذلك الزمان يخلصون لله وحده، ومن هنا أعلن شيخ الإسلام ومفتي البلاد وكل علماء الدين أن حكومة مصر قد فسقت عن أمر الله، وأنه لا طاعة لها في معصية الخالق، فالجهاد أمام هذه القوى الطاغية المؤتلفة من حكومة مصر والإنجليز؛ إنما هو جهاد في سبيل الله.

ويترك الشيخ "جودة" أوراده التي ينتقل بها بين القرى ليتلوها على الناس في الموالد، ويترك بغلته الفارهة، ويترك عشرات أمثاله كل شيء، ويحتشدون جميعًا للحرب المقدسة تحت لواء "عرابي" ضد أعداء الله والوطن..

وينزح من كل قرية شبابها بفئوسهم وعصيهم، إلى المعركة.

ويتحول الريف المصري المهزول إلى منبع خصب فياض يرسل الطعام والحديد والإنسان، إلى تلك الحرب المقدسة...

و"الشيخ جودة" وعشرات أمثاله يؤدون دورهم خلف الصفوف، ينتقلون من الميدان إلى القرى، وكلما هبط واحد منهم أرض قرية صاح في طرقاتها: "يا أهل البلد، الجيش بخير، لعنة الله على الظالمين، مطلوب منكم الخبز والطعام!". ولكل بلد حصة مفروضة تؤديها في حماس هائل.

ولكن قريتنا هذه المسكينة لم تعد تستطيع أن تؤدي القناطر المطلوبة من السمن... وكان الليل يتقدم... والشيخ جودة ينظر إلى وجوه الفلاحين العجائز... وخيم صمت طويل يجلله الأمل المبهم ويقطعه السعال ..

كانت أجسادهم المعروقة السمراء التي أنهكها الكدح الطويل تختلج بالأنفاس واللهثات، وهم يسعلون وينظرون إلى الأرض في انتظار معجزة، ثم أخذوا يرتلون أغنية حزينة من دموع أيامهم ... وفي آخر كل مقطع من الأغنية دعاء

حار متوسل إلى الله أن ينصر "عرابي"، وأن لعنة الله على القوم الظالمين.

وقاموا إلى الصلاة مرتين.. وبعد أن فرغوا من صلاة العشاء ومن الدعاء لجيش مصر عادوا يجلسون أمام المسجد، وقد أخذت نسمات سبتمبر تصافح الوجوه.. والأنسام على أي حال تصافح الوجوه، ولا تستطيع أن تميز وجوهًا دون وجوه. وحُمل إليهم الطعام.. لم يكن كما تعود "الشيخ جودة" ... بل كان خبزًا مقددًا، وقطعًا متحجرة من الجبن القديم والبصل الجاف..

ورفعوا أيديهم عن الطعام فحمدوا الله، وعاد الصمت والظلام يخيمان على الجميع..

وقال الشيخ جودة في رنته الوقور: "الآن علم الله أن بكم ضعفاً فخفف عنكم". ولم يجبه أحد..

ربما غفر الله لهم.. ولكن ماذا يستطيع الجيش أن يصنع.. أيمكن أن يستغني عن حصة القرية في هذه القناطير من السمن؟..

***

وهم الشيخ جودة بالقيام، وتحرك الجميع.. وهم ينظرون إلى ما وراء الأفق البعيد.. حيث تدور المعركة..

وفي السماء لاح ضوء خاطف أحمر.. ودعك "الشيخ جودة " عينيه، وفتحهما وهو يستعيذ بالله.. وقبل أن يقول كلمة صاح فلاح عجوز: "الله أكبر... انفتحت طاقة السماء ...". وتساءل الشيخ في عجب: "أترون معي؟... ما هذا يا أولاد!".

وارتفعت الأصوات .. ليلة القدر يا سيدنا الشيخ!! .. ادعوا.. ادعوا الله يا ناس.. اللهم انصر عرابي، اللهم قدرنا على إرسال السمن للجيش، اللهم..".

وقال الشيخ مستنكرًا: "قدر؟! أين نحن من ليلة القدر؟"

وأخذ الجميع يتطلعون.. وساروا قليلاً والأضواء تسطع ثم تسطع، وقد أصبحت طاقة من النور الأصفر تتخلله دوامات حمراء، والأفق كله يرقص بارتعاش اللهب، ومن بعيد كان سكون الليل يحمل أصواتًا مختلطة بأصداء أغنية، وميز الفلاحون بعض مقاطع الأغنية، كانت بالنصر لعرابي وجيش الوطن.

وكان اللهب يتزايد في الفضاء، وعلى شـعاعه المتـوهج بدأت أشباح متحركة تلوح ومن ورائها سحابات الدخان فـي السماء، وسحابات الغبار فوق الأرض.

وتبين "الشيخ جودة" صوتًا يناديه: "يا سيدنا الشيخ، فرجت يا سيدنا، سافر الليلة بالسمن!!".

وخرجت القرية برجالها العجائز ونسائها وأطفالها تستقبل هذا الموكب، وعرفت القرية من ثنايا الموكب أصوات "عبـد السميع"، و"حسنين"، و"عبد العليم" و"زكـي الحـاج"، وبقيـة الرجال الذين يشتغلون في تفتيش "الباشا" المجاور، والـذين تخلفوا وحدهم من بين شباب القرية عن المعركة منـذ أقـام الباشا عليهم الحراس الشراكسة الغلاظ يسوقونهم بحد السيف وقرع السياط إلى العمل في حقوله.

ظلوا ينحنون على أرض الباشا، ويلعقون العرق ودمـاء الجراحات، وهم يعانون ما عرفته القرية جميعًا، وهي تبحث للجيش عن خمسة قناطير من السمن.

ولقد تحدثوا إلى "الباشا" أن يقرضهم نظير عملهـم هـذه القناطير الخمسة من السمن، فروع الباشا من هذه "القحـة"، وأمر أن يحبسوا بلا طعام في حظيرة مهجـورة للمواشـي،

وأن يجردوا من ملابسهم ويقرعوا بالسياط، وأقام عليهم عددًا من الشراكسة الغلاظ يعذبونهم الساعات الطوال.

وانقضى النهار فأقسم الفلاحون أن يكون هو آخر نهار على دولة الطغيان!

وعندما تعب الحراس من التنكيل بالفلاحين العشرين انقض المساكين على جلاديهم، واستطاعوا آخر الأمر أن ينتزعوا السيوف من الحراس، وفتحوا أبواب السجن.. خسروا في المعركة عشرة رجال، وخرج العشرة الآخرون على أشلاء جلاديهم.. فوجدوا عشرات الإبل والبغال محملة بالزاد.. كانت هي أيضًا ستمضي إلى المعركة تحت جنح الظلام.. ولكن إلى الجيش الإنجليزي.

وكان إلى جوار هذه الإبل والبغال عصبة أخرى من فلاحي القرى المجاورة يُساقون تحت سياط الحراس الشراكسة والمتمصرين، إلى حيث يحملون الزاد لأعداء الوطن..

وحين لاح الفلاحون المحررون والسيوف في أيديهم أمام إخوتهم المغلولين، صاح الجميع: "يحيا العدل، يحيا عرابي!".

وروع الحراس الشراكسة، وانقضوا بسيوفهم، ودارت معركة صغيرة اختفى بعدها الشراكسة، ووقف الفلاحون أمام ردهة القصر يهتفون لعرابي، وللعدل.

وبعد لحظات كانوا يجردون الحظائر مما فيها من ماشية وخيل وإبل، ويجردون المخازن من الغلال والسمن، وكان الباشا يركض ومن حوله بعض الأتباع، هاربين من طريق خلفي.. وقد أصبح القصر شعلة من نار!

وعلى ضوء هذه النار سار الفلاحون إلى الشيخ جودة يقودون قافلة تحمل من الزاد ما لم تكن تستطيع أن تقدمه عشرون قرية مجتمعة.

وكانت النار التي تشتعل في أركان "قصر الظلمات" تملأ نفوس الفلاحين الرحيبة الساذجة بشعاع هادئ عجيب.

وعانق "الشيخ جودة" كل الرجال، وأخذ الفلاحون يتحسسون ظهور الخيل وأجساد الإبل، وهم ينظرون في عجب ذاهل إلى أكوام الزاد كمعجزة منقذة..

ولم تنم القرية في تلك الليلة.. فقد خرج النساء والأطفال ينشدون.. وهزت الزغاريد والهتافات أرجاء الليل... بينما

كان الشيخ جودة ومن ورائه القافلة والرجال، يسرعون إلـــى المعركة تحت شعاع الفجر.

ونظر الشيخ جودة إلى الخلف فوجد أطفال القرى ما زالوا يسيرون فقال لهم ضاحكًا:

- ارجعوا يا أولاد.. سيأتي دوركم فيما بعد..

في الصيف صادوا الحمام

كان الفلاحون في الأجران يفرغون قمـح السـادة فـي الأكياس الكبيرة، فلم يكن الفلاحون في ذلك الزمان يـدخلون القمح في منازلهم؛ لأنهم في الحق لا يصنعون به شيئًا، الخبز المصنوع من القمح لا يأكله إلا الإنجليز والسادة، ولقد يعيش الرجل ويموت دون أن يعرف ما هو عيش القمح هذا، وكان السادة يدركون هذا جيدًا، ويعرفون أن الفلاحين تفسد معداتهم إذا تناولوا شيئًا غير الخبز المصنوع من الذرة، وهم من أجل ذلك يحسبون دائمًا حساب البهائم والفلاحين في القدر الـذي يجب أن يزرع من الذرة، ومع هذا فطالما أقبل الخريف على قرى مصر وقد فرغت مخازن الفلاحين من الـذرة، وكـان الفلاحون عندما يقبل الحصـاد مـن كـل عـامٍ يسـتقبلونه بلا بهجة، فهم يعرفون أنه لـيس حصـادهم هـم، وإنهـم ليشعرون دائمًا بأن هذا الحصاد ليس أكثر من دور آخر من أدوار الشقاء، كالموتى في بعض الأساطير؛ يسيرون من قبر إلى قبر، وهم يرددون لعنة المولى الجديد!

وفي أول موسم الحصاد تجلل القرى أغنيات حزينة عـن الذين ذهبوا إلى معركة الحرية ولم يعودوا، وعن الحياة التي

تسيل قطرة بعد قطرة، وعن الكدح المهدر، والأفــق الــذي تسوده بقايا دخان البارود، وحسرات ضــائعة علــى الأمــن المسلوب، ولا يكاد الحصاد ينتهي حتى تسكت الأصــوات، ولا يبقى في كل القرية غير أعصاب متعبة ولهيب الشــمس، والحمائم البيضاء تلقط حبات القمح في أمــن، ولا تريــد أن تبرح الأرض.

وقد جلس بين الحمائم طفل في الثالثــة، حافيًــا ممــزق الثوب، لا يستطيع بعد أن يمسك فأسًا. كان على الرغم مــن الفقر نفسه جميلاً عذب المنظر، وكان يضحك ويرفرف بيديه بين الحمامات، ويمد إليها حبات القمح فتلتقطها منه، ثم تثب على رأسه فيغمض عينيه وهو يستغرق فــي قهقهــة طلقــة رائعة، إنه مهما يكن من أمره يتمتع بالطفولة، هــذا الشــيء الذي يعطي حياتنا لون الورد!! وكان الجنود الإنجليز الــذين أقبلوا لصيد الحمام يرون هذا المنظر والضيق يملأهــم، إن الحمام لا يريد أن يطير عن هذا الطفل والشمس تلفح الوجوه والرءوس. أتراهم يعودون إذن بلا صيد؟

وفرغ صبرهم فالتقط واحد منهم قطعة من الطوب ورمى بها الحمام والطفل، وفزع الحمام، فبكــى الطفــل، والتفتــت

إحدى القرويات على بكاء الطفل، وعلى صوت الطوبة التي حركت ذلك الصمت. وتلفتت من حولها تبحث عن أمه وعن أبيه فلم تجد أحدًا، ففي معركة الحياة المريرة التي يعيشها الفلاحون، وفي نضالهم اللاهث مع لقمة العيش من أجل أطفالهم، ينسون أحيانًا هؤلاء الأطفال. كانت أم الطفل في مكانٍ بعيد وراء حزم القش تنحني على التراب لتصفي منه حبات القمح المتناثرة، وكان أبوه يحكم ملء الكيس، ولئن لم تنحني المرأة على التراب لالتقاط حبات القمح، ولئن لم يحكم الرجل ملء الأكياس، فلا يدري ماذا يمكن أن يحل بهما من عقاب!

ونادت القروية: "يا أم مصطفى، الحقي ابنك". ولكن أم مصطفى لم تسمع، ومضت القروية إلى الطفل، ورفعت عينها إلى الفضاء، وفي ساعات العمل لا يكاد الفلاحون يجدون وقتًا ليرفعوا عيونهم إلى الفضاء!

وعلى الطريق أبصرت خمسة من الجنود الإنجليز السلاح في اليد، والعيون مثبتة على الطفل. وذهلت القروية، ولم تدر ماذا تصنع، ولم تستطع حتى أن تصرخ.

وألحت على رأسها صورة ثقيلة فادحة من فاجعة "دنشواي"، ولاحت أمام عينها خيالات قريتها. أيمكن أن تسيل فيها الدماء؟. وتحسست جسدها هي، أيمكن أن يصنع بها الإنجليز كما صنعوا بأخواتها من نساء دنشواي؟. ولهثت من الفزع. فجلست على الأرض، ورأسها بين يديها. كان القمح يملأ الدنيا باللون الأصفر، وبدا كل شيء أمامها أصفر، كل شيء حتى جلبابها الأسود رأته شاحبًا كالموت. وعاد الحمام يرفرف حول الطفل ويثب على رأسه، وعاد الطفل يمد يديه بالحبوب ويضحك، ويضرب الهواء بذراعيه، ونظر الجنود الخمسة إلى الحمام وإلى هذا الطفل. وبعد. أيعودون إذن بلا صيد؟ أيفسد عليهم الطفل رحلتهم تحت الشمس؟ وفجأة، انطلق صوت عيار ناري، واهتزت الأجران كلها بالدوي الرهيب، وانتفضت القروية جاحظة العينين، وأسرع الفلاحون ينظرون، وكانت "أم مصطفى"؛ هي أول من أقبل وهي صارخة بلهفة الأم: "مصطفى، ولد يا مصطفى!."

غير أن مصطفى لم يرد. ولم يكن في استطاعته أن يرد إلى آخر الزمان، وفي المكان الذي كان مصطفى يملأه بكل عذوبة الطفولة البيضاء منذ لحظات.. كان الدم يسيل!..

وصرخت أم مصطفى: "يا ولدي. قتلوك!!". ثم استدارت إلى الذين كانوا يجرون إليها من أقصى الأجران: "الإنجليز قتلوا ابني. قتلوا ابنك يا أبو مصطفى". لم تكن دموعًا فقد كانت ما تزال في تلك اللحظات الأولى من صدمة الفاجعة قبل أن تقيض الدموع لتطفئ اشتعال الأعصاب. كان قلبها هو الذي يزأر، وإنه لقلب أم!

ولم يقل أبو مصطفى شيئًا؛ وإنما أخذ يجري ويجري، ومن ورائه يجري القرويون والقرويات، لم يقفوا ليذرفوا دمعة على أشلاء الطفل الذي كان يملأ يومهم المتعب بالضحكات. والذي كان يتلقى مداعبتهم جميعًا كلما أنهكم التعب، وتحمل ابتسامته إلى قلوبهم برد السلام.

كانوا يسمونه "مصطفى كامل"... وكان كل واحد منهم يرى فيه الأمل الذي لم يستطع أن يعيشه هو.. ولكنه قد مات.. قتله الجنود وهم يصطادون الحمام!... ووقف الجنود الإنجليز على البعد يتضاحكون، وقال أحدهم: "خمس حمامات.. ". فقال آخر: "بل أربع والطفل". فقال الثالث: "لا .. لا.. لقد كسبت الرهان.. الطفل... وخمس حمامات!"، ثم أقبلوا متضاحكين ليروا من هو الذي كسب الرهان! وكانوا

في تقدمهم العابث قد بدأوا يشاهدون موكب الفلاحين يجـــري إليهم، وعلى الوجوه احمرار مخيف !... ولـــم يكـــن بـــين الفلاحين والفلاحات من يحمل فأسًا أو عصا أو بندقية.. ومع ذلك فقد أدرك الجنود أن هؤلاء الفلاحـــين أقبلـــوا منتقمـــين لمصرع الطفل.. فأطلقوا الرصاص.

ومع هذا ورغم الضحايا فالفلاحون يتقدمون!.. وأخيـــرًا التحموا مع الجنود.. فأمسكوا بخناق واحد منهم، وانتزعـــوا منه بندقيته.. وسقط هذا الجندي تحت الأقدام.. وبدأ الفلاحون يطلقون النار.. فسقط جندي.. وغنموا بندقيته.. وفي لحظات كان الثلاثة الجنود الآخرون قد سقطوا..!

واختلطت دماء الأحرار بدماء الإنجليز. كانت كلها دمـــاء بشرية، وكانت الأجساد الإنسانية تستلقي هامدة مشوهة أمـــام نفس المصير!..

وفي اليوم التالي لم يستطع واحد من السادة المصـــريين أن يطالب بإبادة تلك القرية من مديرية الجيزة. ولم يســـتطع الإنجليز أن يمارسوا فيها وحشية "دنشواي"، لا لأنهم خجلوا من صرخات الضمير المتحضر فحسب؛ بل لأنهم أدركوا أنه لا طائل من وراء ما يصنعون، فليتنازلوا هـــم، وليرجعـــوا

خطوة!... وهكذا أصدرت القيادة البريطانية للجنـــود أمـــرًا تحرم عليهم صيد الحمام، وتحرم عليهم الاقتراب من القرى، وبعد أن دفنت القرية ضحاياها، ومصطفى، عادت تـــداعب الأطفال الآخرين، وترى في بريق عيونهم نور الغد الجديـــد، وعادت الحمامات تحلق فوق القرية، بيضاء كالأمل، نشـــطة رفافة كالمعركة، طيبة.. كالسلام.!

قرية مؤمنة

قال لهم متلطفًا: "عودوا إلى الحقول.. عــودوا الله يفــتح عليكم".. فلم يتحرك أحد. وعاد يقول لهم فــي لهجــة أكثــر حزمًا: "إن سعدًا لن يعود من المنفى، وإن الذين ســيتركون الحقول بعد اليوم لن يتناولوا أجرًا على الإطــلاق". فظلــوا جامدين؛ الفئوس في الأيدي، وعلى العيون ظلال، ظلال كآبة يخفي الشرر.

وسأل أزهري شاب رفع رأسه لأول مرة في وجه الباشا: "لماذا لا يعود سعد من المنفى؟ سنعيده نحن بإذن الله". فارتفع صوته بنبرات جليلة تخالطها القسوة والمخاوف: "إن ســعدًا يتلقى المعونة من البلاشفة الحمر، الذين يحــاربون الــدين، والذين أطاحوا بالقيصر، وأقاموا المشانق لأمرائهم وأسيادهم. لقد أرسلوا إليه يؤيدونه، فرد عليهم شاكرًا هذا التأييد". فاندفع من الزحام عامل يقول: "وماله؟".

وقال الأزهري الشاب في ســخرية مفحمــة: "ومالــه؟". وأجاب ثلاثة عمال آخرون يقيمون في قريتهم منــذ إغــلاق المصانع التي يعملون فيها: "ومالــه يــا باشــا؟". وهمهــم الفلاحون: "يحيا سعد". واهتز عرق أزرق في جبين "الباشا"،

وارتعشت السلسلة الذهبية الغليظة على بطنــه المتكرشــة، وصرخ بكل بدنه المترهل: "اخرج يا كلــب أنــت وهــوه، اجلدوهم، اخنقوهم". وكان السادة في مصر على ذلك الزمان قد اكتسبوا وحدهم الحق المشروع في أن يقيمــوا المشــانق للناس كيفما شاءوا، وما برح الباشــا يصــيح: "اخرجــوا.. اخرجوا". حتى اهتزت ساحة القصر بهتاف واحــد: "يحيــا العدل"، وبادر إلى الباشا زائــره الإنجليــزي، وإذ أشــرقت طلعته المطمئنة على الوجوه المتشنجة الســمراء، جحظــت العيون ودمدم الهتاف بسقوط "الإنجليز" و"برادع الإنجليــز".. ودهم "الباشا" خجل مرير يضرمه حنق هائل، فوضع يده في جيبه ليشهر مسدسه، غير أن الزائر الإنجليزي الكبير جذبــه من يده في رفق وثقة، وهو يهمس في أذنه بكلمات أتمها في الفضاء الواسع الذي يستلقي خارج القصر الضخم عند بيوت الفلاحين، وتابعه الفلاحون إلى باب العربة، وانطلقت العربة بالباشا وصديقه الإنجليزي، والفلاحون يهزون صمت الأفــق الحزين بهتافهم: "تحيا الحرية، يحيا الوطن". كان الغلاء فــي تلك الأيام يطحن حياتهم وحياة إخوانهم في المدن، كما تطحن الأحجار حبات الذرة التي يحصلون علــيهم للطعــام بعنــاء

طويل، ولم يكن للوطن والحرية عندهم غير معنى واحد: الحياة الإنسانية الكريمة التي لا ينهشها الغلاء، ولا يهدها المرض، ولا يروعها الجوع، ولا يلوثها العار، ولا تخيم عليها الظلمات، ولا تهبط بالناس هذا الهبوط كله عن مستوى الكلاب المدللة في بعض القصور، وفي الطريق الذي تستلقي عليه الحقول الشاسعة النابضة بالخضرة، ومآسي الذين صنعوا لها خضرتها. قال الصديق الإنجليزي: "يجب أن تتعلم كيف تضبط أعصابك في مثل هذه المواقف.. وإلا استولى عبيدك على مقرك ومزارعك كما حدث لآخرين". فقال الباشا في قلق منفجر: "إنها مصيبة، فالدهماء ما زالوا يتحكمون، وعلى الرغم من كل القوانين فما زال نظام الحكم في خطر، وسعد لا يريد أن يفهم أنه يلعب بالنار. قلنا له هذا ألف مرة، ولكنه عنيد، وهو يترك الفلاحين يحركونه ويدفعونه إلى حيث يتهاوى نظام الحكم على رءوسنا جميعًا، إنه ليتملق الدهماء، يتملقهم، وربما ضحى في تملقه هذا بحياتنا.. هذه مصيبة!".

وكان نظام الحكم في ذلك الزمان بأن تجثم جيوش الاحتلال على الأنفاس لتحمي لأصحاب المزارع الكبيرة

الحكم الوحشي على المعذبين في الحقول، ولتحافظ على رءوس الأموال الإنجليزية التي تتمدد خلال شركات عديدة تسلب يومًا بعد يوم أقوات العمال والموظفين والطلاب، وصغار التجار والمنتفعين وأصحاب المهن. لم يكن كل هؤلاء في الميزان يساوون شيئًا بالقياس إلى الحفنة القليلة التي تزرع القطن وتصدره إلى المصانع الإنجليزية، وعلى الرغم من أن القوانين كانت تشرع دائمًا لحماية هذه الطائفة، وعلى الرغم من أن السجون قد امتلأت بالأحرار، والقبور قد ضاقت بالأموات والأحياء على السواء.. على الرغم من كل هذا؛ فقد انقضت الجماهير العديدة في المصانع والمدارس والطرقات والمكاتب، معلنة في عجزها عن مقاومة الغلاء؛ إنها لن تريق حبات العرق منذ اليوم لتتبلور في عقود الماس، ولن تهدر دماءها بعد ليجس الآخرون على أكياس الذهب، وزُلزلت الأرض تحت أقدام سادة الأرض، فأخرجوا "سعدًا" من أرض الوطن، ومضوا يخادعون الناس عن حقيقة الصراع، وطالبوا الناس أن يلتزموا الهدوء، فتصايحت الجماهير: "لحساب من هذا؟؟ ولماذا نرضى بحياتنا هذه التي لا نملك فيها شيئًا غير الأغلال والهوان؟"

وعادوا يطالبون الجماهير ساخرة.. وما كان للذين استضعفوا في الأرض أن يأمنوا للذين ساموهم عذاب الحريق.. وتجاوبت من وراء البحار في الجزيرة البعيدة (حيث يقيم الزعيم المنفي وصحبه) نفس الصرخات التي أطلقتها الشوارع والمصانع والحقول: "كفى خداعًا.. أطلقوا الأحرار من السجون.. ألغوا القوانين التي تكبل نضال الشعب.. لن يقف الضحايا أبدًا في صف واحد مع الذين يمتصون دماءهم.. إنكم والاستعمار عدو واحد، ما دمتم له الأداة الجهنمية المشئومة..". وإذ أيقنوا أنهم لن يخدعوا الشعب في شيء، أطلقوا جهاز الدولة بكل وسائله يضرب ويضرب بلا رحمة، وما كان جهاز الدولة من قبل قد توقف، وشرعت الصحف التي لا تعيش إلا في الوحل كالدود تنفث سمومها الشائهة في بهلوانية بارعة، وانطلق ضابط مصري يربط الثوار إلى ذيل حصانه، ويعدو في شوارع القاهرة، حتى لتتمزق الأجساد المصرية قطعة، وهو سعيد مرفوع الرأس، وإن كان ليحني رأسه أمام ضباط جيش الاحتلال ليتلقى منهم النياشين. وأخذ الجنود المصريون يضربون إخوتهم في الدم والوطن والمأساة والأمل، ومن وراء كل ذلك

استمر جنود الإمبراطورية يطلقون النار من الأسلحة الحديثة بلا حساب.. وإنهم هم أنفسهم لآباء وإخوة وأبناء أيضًا، وقد خرجوا من الحرب العالمية وقلوبهم مثقلة بالجراح.. وإنهم ليحلمون أن يعودوا ذات يوم إلى أوطانهم فينفقوا ما بقي لهم من العمر سعداء آمنين بين الأمهات والآباء والزوجات والأطفال، غير أن للاستعمار قضاءً لا يرحم.

عندما انتهت عربة الباشا إلى قصر المدير؛ كان الرجل يتحدث مع رؤسائه في القاهرة، ويتلقى منهم التهنئة لأنه مسيطر على الحالة.. فقد أحرق الإنجليز القرى الثائرة جميعًا، ولم يعد هناك من يجرؤ على رفع رأسه بالعصيان! وصرخ الباشا في المدير: "ماذا تقول .. إن العصاة في أرضي ليهتفون بالحرية!". وروع المدير من هذه المفاجأة...

وتحدث من فوره مع المفتش الإنجليزي، واتفق الجميع على إرسال حملة من مائة جندي إنجليزي لتؤدب القرية العاصية؛ والمدير كالباشا نفسه، ينحدر من أبٍ شارك في فتح أبواب مصر أمام الجيش الإنجليزي لتأديب عصاة ذلك الزمان!

ومن يدري؟! إن بعض الموتى ليحمل اللعنة من قبل إلى قبر.. ربما كان له اليوم ولدٌ أيضًا، وإن محتلاً جديدًا يجب أن يدخل مصر ليؤدب عصاة هذا الزمان!!

وعلى أي حال؛ فقد انحدرت الحملة بمدافعها الرشاشة إلى الطريق الزراعي.. والباشا ما زال يعجب لمصر كلها ماذا دهاها؟! لقد كانت من قبل طيبة مع سادتها.. كانت قرية مؤمنة!! ولقد غمرتها الدماء اليوم، ومع ذلك فالمنشورات الثورية تتدحرج في كل مكان كالطوفان... والمظاهرات تملأ الطرقات.. والعمال يحاولون الاستيلاء على المصانع.. والفلاحون يكيدون للسادة.. ولجان الطلبة وجماعات المقاومة السرية تثب وتتحرك هنا وهناك كنبض القلب في المعركة!!

وقريته الآمنة؟ لقد كانت حتى الأمس في قبضته، ولكن.. كل شيء يجب أن يعود كما كان.. وستنحني الظهور مرة أخرى لتحمل له محفة أيامه المترعة بالعطور!

غير أن الظهور كانت قد انتصبت إلى الأبد، على غير ما قدر الباشا الطيب السعيد، فقد أجمعت القرية على أن تقاوم إلى النهاية، وألا تستسلم ما دام فيها ساعد يستطيع أن يحمل السلاح.. وكانت القرية قد تعلمت كثيرًا أن تحارب القرى

الأخرى.. وعرفت أنهم سيقبلون بالنهار أو الليل، يقتحمون الدور، ويعبثون بالنساء أمام الرجال، ويمتهنون وقار السنين في الشيوخ، فأجمعت القرية على أن تخرج النساء والأطفال والشيوخ من الدور.. فتجمعوا كلهم في الأجران الواسعة خلف بيوت القرية. وبقي الرجال وحدهم في الدور، في يد كل منهم فأس أو بندقية عجوز.

وعسكرت الفرقة الإنجليزية في قصر الباشا.. ثم بدأ قائدها يوزعها إلى مجموعات صغيرة، كل واحدة من أربعة جنود، وأمرهم أن يهاجموا الدور ليسوقوا الرجال كلهم راكعين إلى قصر الباشا، وأوصاهم مستضحكًا ألا يشغلهم جمال القرويات عن أداء واجبهم الشريف! وتوزعت المجموعات الصغيرة على الدور، وفي صدر كل رجل حلم ثمل بمتاعٍ سهل..

وبدأت تلك البيوت السوداء كحياة أهلها تكتب تاريخًا جديدًا للذين نسيهم التاريخ.

كانت أبوابها الخشبية تتمزق تحت ضغط الجنود.. ثم يندفع جندي إلى الدهليز المظلم، ومن ورائه ثلاثة آخرون.. وشهد كل دهليز فأسًا تهوي على رأس أول جندي يدخل،

أو بندقية هرمة تشتعل في صدره، أو فلاحًا يلتقط في سرعة خارقة مدفع الجندي من علـــى الأرض العفنـــة بـــالروث.. ومعركة بين ثلاثة جنود وفلاح!! وسقط من ســقوف القــش والطين كثير من جنود الإمبراطورية، وكثير من الفلاحين.

وتعثر في طرقات القرية بعــض جنــود يهربــون إلـــى القصر.. وفي القصر تجمع نحو عشرين جنديًا هم كل مـــن بقي من حملة التأديب.. وجن جنون الباشا مـــن الرعـــب.. وأخذ يصدر أوامره للجنود أن يحرقوا القرية على من فيها.. غير أن الفلاحين كانوا يزحفون إلى القصر ليحاصروا سيده والجنود، بينما كان الأطفال والنساء في تلك الليلة الرائعة قد تجمعوا خلف القصر، وأخذوا يقذفونه بالمشاعل..! واشتعلت النار في مخازن التبن، والطلقات تـــدوي خـــارج القصـــر، والسماء تهتز بهتاف الفلاحين! وأحس كل من فـــي القصـــر أنهم محاصرون!.. وسيطرت على الجنود الإنجليز حســـرة مباغتة.. لماذا هم اليوم هنا؟؟ لحساب من إذن يقتلون النـــاس وتحاصرهم النيران ليهلكوا فيها كأعواد الهشيم؟؟

وعلى أضواء النار التي تلتهم كل شيء؛ قفز الجنود مـــن نافذة جانبية، ومن ورائهم صاحب القصر..

ثم مضى الجميع يضربون في الليل الذي يختلط من ورائهم بالفلاحين! وعندما أكلت النار كل شيء في القصر، أخذ الفجر الجديد يلوح من بعيد، ويسحب شعاعه الهادئ على الدخان..

ولم يستطع أحد بعد أن يؤدب القرية العاصية.. فما هو إلا قليل حتى عاد "سعد" وصحبه.. وترامى عليه السادة والأتباع لينقذ لهم نظام الحكم بأي ثمن.

ولكن الثورة على الرغم من كل شيء ظلت في المصانع والحقول والمدارس.. لتحقق للجميع حياة إنسانية لا يروعها الجوع، ولا يلوثها العار، ولا يجثم عليها الظلمات، ولا تهبط عن حياة الكلاب المدللة في بعض القصور.. ويومًا بعد يوم أخذت الثورة تعرف من هم الأصدقاء، ومن هو لها عدو مبين.. أو غير مبين.

تاج الشوك

["عندما وضعوا على رأسك تاجًا من الشوك، أخذ جبينك المنعكس يدمي، والشوك ينفذ من رأسك إلى النخاع"، وأتاني صوتك من بعيد يمزق رنينه العذب صراخك المر، ويسكت المأساة في الأغوار من كل نفس، "وفجأة.. نبتت لك من بين الأشواك براعم غضة.. وتساقطت الأشواك من حولك على التراب، وارتفع رأسك مزدهيًا بنضارة الزهر الجديد"، وأخذوا في ذهولهم يبحثون عن المعجزة التي صنعت كل هذا، ولكنها لم تكن في جارجك.. كانت في الأعماق منك.. كانت تختلط بك أنت!].

اصطكت الأرض الصلدة بالأحذية الغليظة، وشد الجنود أبدانهم، وهم يرفعون أيديهم بالتحية، ويلصقون أطراف الأصابع بجباههم البرونزية المليئة بالعرق والغضون!..

- تمام يا أفندم..

ثم استداروا، وتركوا أيديهم تهبط إلى أجسادهم المتعبة، وتتخذ حركاتها الرتيبة المسترخية.. كانوا جميعًا يحلمون

بالنوم العميق، وكان "الشاويش عبد الله" هو أول من تحـــرك إلى باب القسم في طريق العودة إلى المنزل!!

لن يمر الليلة بالمقهى ليلعب "الـــدومينو"، فســيعود قبـــل مشرق الشمس إلى القسم؛ حيث ينتظره عمل طويل مخيف.

إنه لا يعرف بالتحديد إن كان سيوضع في عربة تـــذرع القاهرة، أو سيوضع على ظهر جواد.. ولكنه يعرف فقط أنه في الغد سيصبح كائنًا آخر.. سيطلق النار!..

إن الشاويش "عبد الله" لم يطلق النار على أحد من قبـــل، ولكنه في الغد سيطلق النار علـــى أي جماعـــة تســير فـــي الشوارع، أو تتجمع أمام مدرسة أو مصنع... هكذا صـــدرت الأوامر، وقد سمعها ولم يكن أمامه خيار!! وعنـــدما قرأهـــا الضابط الصغير الذي لا تكاد سنة تعلو عن أولئـــك الـــذين يملأون الشوارع بالهتاف؛ قرع "الشاويش عبـــد الله" حـــذاءه على الأرض، وأدى التحية العسكرية، بينما أخـــذت صـــورة ابنه تتخايل أمام عينيه! إن ابنه الطالب بمدرســـة "التجـــارة المتوسطة"؛ هو أحد الذين اشتركوا فـــي مظـــاهرات اليـــوم احتفالاً بذكرى ١٣ نوفمبر، وسيشترك في مظاهرات الغـــد، وسيظل كغيره من الطلاب يتظاهر على الرغم من كل شيء!

وكم لقي الطلاب من الجنود طول النهار! وكم لقي الجنود من الطلاب.. ولقد أوشك الشاويش عبد الله نفسه أن يصاب بقطعة من الحجر.. وعلى أي حال فقد ابتلت ملابسه بالماء الذي كان يصوبه الطلاب إلى العساكر ليحملوهم على الابتعاد.

ومع ذلك فلم يفكر واحد من الجنود في أن يشهر بندقيته في وجه أي إنسان.. لم يفكر واحد منهم في أن يقتل. ولكنهم في الغد مطالبون بأن يقتلوا.. يجب أولاً أن يقتلوا كل من قاد مظاهرة، فإذا لم تتفرق المظاهرة بعد مصرعه، فيجب أن يطلقوا النار على المتظاهرين جميعًا بلا استثناء! هذا هو واجبهم كما "تقضي التعليمات".. وهذا هو واجب "الشاويش عبد الله"، ولو كان ابنه بين المتظاهرين!

ولكن.. أيستطيع هو أن يفهم أن هذا واجبه كجندي..؟!

لماذا يقتل ابنه أو أحد الذين يهتفون كابنه في الطرقات؟

إنه هو نفسه منذ ثلاثين عامًا كان يهز فأسه في القرية ويهتف: "يحيا العدل"، ويهتف بسقوط الإنجليز، وهؤلاء الذين يجب أن يموتوا غدًا لا يصنعون غير نفس الأشياء. وعندما ترك باب القسم كان يفكر في شمس الصباح؛ كم من القبور

يفغر فاه الليلة ليلقف أجساد ضحايا الغد؟ والتفت فجـأة إلـى قسم البوليس فشعر بكراهية مباغتـة لهـذا البنـاء الـداكن الرهيب.. أيجب إذن أن يفقد هناك كثيرًا من معانيه كإنسان؟! لقد تعلم كثيرًا في هذا المكان.. تعلـم أن يغتصـب بطـيخ الصيف وبرتقال الشتاء من الباعة المساكين؛ لأنه لا يستطيع أن يحمل من مرتبه شيئًا إلى أسرته.. وتعلم أيضًـا ولكنـه لا يطيق.. فهو يشعر الساعة بخجل فظيع من نفسه.. ولكن. أيجب أيضًا أن يتعلم القتل؟ أيجب أن يكون سفاحًا؟ لماذا؟ من أجل من؟. ومضى في الطريق يفكر في الغد؛ سيلتقي العمال والطلبة والموظفين غدًا في مظاهرة صامتة..

وتذكر بغتة أن له أخًا يشتغل في أحد مصـانع النسـيج. وبدأت صور وجوه عديدة تتخايل أمام عينيه؛ موظفون مـن قريته يعملون في القاهرة، الطلاب الذين يسكنون في حارته، العمال الذين يلعب معهم "الدومينو" على المقهى ويستضـحك معهم لبعض الوقت.. كل هؤلاء يجب أن يقـتلهم غـدًا..!! وارتعش عبد الله؛ "أيجب أن يقتل كل مـن يحـب ليصـبح بطلاً؟" إن رضا الرؤساء وزيادة المرتب والبطولـة، وكـل الأشياء المحببة للنفس تطالبه بأن يقتل! وتراقصـت أمامـه

الأضواء والظلال كالمسرح.. فقفز إلى أول تـرام، وحشـر نفسه في الزحام.. وكان الجميع يتحدثون عـن مظـاهرات اليوم.. وكان بعض الشبان يتحدثون بأصـوات مبحوحـة.. ولكنه لم يكد يستقر بينهم حتى شعر بنظـرات اشـمئزاز .. وتناهت إلى سمعه أصوات ثرثـرة مختلطـة مـن غرفـة الحريم.. كل واحدة تروي للأخريات قصة طالـب صـغير انفرد به الجنود وانهالوا عليه بالعصي الغليظة بلا رحمـة.. كن جميعًا يتحدثن في وقت واحد، وينتهين بتعليـق واحـد: "أليس لهؤلاء الجنود أولاد؟ أليست لهم قلـوب؟!". وأحـس عبد الله أن كل من في الترام يبغضه، ويعامله ككائن متوحش بشع.. حتى "الكمساري" لم يشأ أن يحييه كمـا تعـود منـذ أعوام!.. وغادر الترام مسرعًا ليكمل الطريق إلى بيته علـى قدميه، وهو يفكر مشفقًا في التعليمات الجديدة. وعندما كـان يهبط السلالم إلى "البدروم" الذي يقيم في إحـدى حجراتـه؛ أحس بكآبة قاتمة، ولهفة..! ودفع باب حجرته فوجد أطفالـه نائمين، وولده "علي" يقرأ من ورقة في يـده علـى ضـوء مصباح الغاز، ولم يقل شيئًا وخلع ملابسه في هدوء وتـرك زوجته تغسل ملابس الصغار المهلهلة. ثم أخذ ينقل بصـره

بين أولاده جميعًا. وتخيل أنهم يسيرون في مظاهرات الغد.. ولاحت له رقابهم تميل عن الأجساد، والـــدم يســـيل منهـــا كالصنبور على أرض الشارع، والخيل والعربات والأحذيـــة تروح وتغدو على هذه الأبدان.

وهز ابنه الأكبر رأسه معجبًا بما يقـــرأ، فـــروع الرجـــل ودهمه فزع هائل، لكأنه يرى رأسه تسقط على جســـده هـــو أيضًا.. وصرخ في جزع: "علي .. ولد يا علي!"

ورفع "علي" رأسه الثابت إلى أبيه دهشًا.. فغمرت الرجل طمأنينة يمازجها الخجل..

ودعك علي رأسه بيده، واستعاذ بالله، وعاد يحدث ولـــده، فسأله عما يقرأ..

كان علي يقرأ منشورًا! وأخذ يعيـــد علـــى أبيـــه قـــراءة المنشور.. كان المنشور يتحدث عن حق مصر في أن تعيش حرة تحت الشمس.. وعن الجوع والمأســـاة والعـــار، وكـــل ما صنعه الاستعمار في حيـــاة المصـــريين.. وعـــن الـــذين يضربون قوى الشعب لحساب السادة المســـتعمرين، وكـــان الشاويش يهز رأسه في راحة، وهو يقول: "أي نعـــم!". فـــي الصباح الباكر كان الشاويش "عبد الله" يذرع طرقات القاهرة

مع جنود آخرين في عربة كبيرة مفتوحة، كان كل واحد منهم يحمل الخوذة والبندقية، وزادًا من الرصاص..

لم يكن الرجل في الحق متعب النفس أو الجسد.. كان قد نام جيدًا، وكان على طول الطريق من بيته إلى القسم يداعب الناس كما تعود في الأيام القديمة الخصبة..

وكان الشاويش "عبد الله" يحمل في نفسه صراع الأمس.. وتقدم النهار بالصباح قليلاً، وبدأت طرقات القاهرة تمتلئ بالناس.... وأمام كل مفرق يلتقي عنده طرقات أربع؛ وقفت قوة بوليس برئاسة ضابط شاب.. وكان "عبد الله" هو أحد أفراد هذه القوة.. وكان الضباط الكبار يطوفون في عرباتهم الفاخرة على مراكز القوات.. ويؤكدون التعليمات.. وعندما غادر أحد الضباط الكبار القوة التي يعمل بها عبد الله قال للجنود: "استعدوا؟" كانت أصوات مظاهرة تقترب.. ولم تكد عربة الضابط الكبير تنفث وراءها الدخان، حتى همس جندي عجوز ساخرًا: "استعدوا للذبح يا أولاد استعدوا للمجزرة! باسم الله. الله أكبر!". وضحك الجنود.. فعاد الجندي العجوز يقول وهو ينظر إلى العربة الفاخرة: "طول عمره إنجليزي!"

ونظر الضابط الصغير إلى الجنود.. لـم يقـل شـيئًا.. وتقدمت المظاهرة.. كانت من الطلبة وقد أخذ ينضـم إلـيهم كثيرون من أصحاب الجلابيب.. وكان يقود المظاهرة فتـى في السابعة عشرة ينطلق صوته في حرارة شبابه الجديـد.. لم يكن صوته قد تخلص بعد من أنغام الطفولة.

وصاح الضابط يأمر الجنود أن يصوبوا البنادق.. فتساءل الشاويش عبد الله ساخرًا إن كانوا سيحاربون الإنجليـز، وإلا فلماذا يطلقون الرصاص !

ودهش الضابط وأعاد الأمـر.. ولكـن جنـديًا واحـدًا لم يتحرك.. وأخرج الضابط مسدسه وبدأ يصـوب.. ولكنـه وجد عشرات البنادق مصوبة إليه هو.. وفتح الضابط عينيـه كالمجنون.. وبدأت يده تهبط بالمسدس! وتوالت عليه الأسئلة: "لماذا يقتل الجنود أولاد؟.. لماذا يقتلون إخوتهم؟" ولم يستطيع الضابط أن يقول شيئًا.. كانت الدهشة قد فتحت فمـه علـى ذهول أخرس .. ولم يعد يستطيع أن يفكر حتى فيما ينتظـره من جزاء، وفي هذا الحي أو ذاك من أحياء القـاهرة؛ كـان ضباط كثيرون قد رفضوا أن ينفـذوا الأوامـر، ويكونـوا سفاحين.. كانوا يتركون المظاهرات تسـير بسـلام، وهـم

يرددون نفس الهتافات بينهم وبين أنفسهم، ومع ذلك فقد سقط في ذلك اليوم كثير من الشهداء.. غير أن البراعم كانت قد أخذت تنمو وتزدهر.. وبدأت الأشواك تتناثر على الأرض، وعاد الرأس يرتفع من جديد شيئًا فشيئًا، كتلك الأيام القديمة الجميلة.. والبراعم تأخذ مكانها في تاج الشوك.

أرض المعركة

"ثلاثة آلاف مصري قتلهم جنودنا برصاصهم؟. لماذا؟ لأن مصر تريد الحرية، إن هذا لشيء فظيع يجللنا بالعار إلى آخر الزمان!".

ثم جلس النائب البريطاني. ووقف وكيل وزارة الخارجية وهو لا يكاد يرفع رأسه، ولا يعرف أين يخفي وجهه أمام الضمير الإنساني، وأمام الحضارة المعاصرة، ولم يكن الرجل سفاحًا كالآخرين، فقد قال في ندم ووجل: "ثلاثة آلاف قتيل؟. إن هذا حقًا لشيء رهيب مخجل!".

ثم هبط" المستر هارمسورث" من فوق المنصة، كما صعد إليها منكس الرأس ...

ولكن "المستر هارمسورث" لم يعرف بعد الآلاف من قصص العذاب التي جعلت من القرن العشرين عصر الوحوش والأبطال والشهداء!

وأمام منزل العمدة، جلس رجال القرية في الفضاء الواسع يشربون القهوة، ويتطلعون إلى الأفق البعيد، وينتظرون قضاءً ينزل من السماء، وهم يبحثون عن الكلمات التي تمسك الحديث..

ومن حين إلى حين؛ كانت الكلمات تضيع فجـأة لتختلج على الشفاه زفرات الندم، يجللها الخجل، ويضـربها القلق المتحفز الحزين!

وكان "الشيخ عبد التواب"، يداعب حبـات مسـبحته فـي صمت. كان على غير ما عرفته القرية؛ أخرس، رهيبًا، يخيم على سكونه رنين خاشع، كأنما يحمل قبرًا بأسره في أغـوار نفسه.

والشيخ "عبد التواب" رجل في الأربعـين، ذهـب إلـى الأزهر منذ عشرين عامًا ، وما زال يذهب إليه كـل عـام ليعود إلى قريته مع الصيف.

فإذا نضجت الحنطة في الحقول بـدأت القريـة، تنتظـر "الشيخ عبد التواب"، ليملأ أمسياتها بالسمر الحلو، وليتنـاقش مع مقرئ القرية مناقشات حادة، تضحك لها القرية، ولتـدفع إليه القرية بآيات القرآن ليشرحها، وإعلانات نـزع الملكيـة ليفسرها. وليلقي خطبة الجمعة، ويقرأ على الناس الصـحف التي تحمل أخبار المدينة، أو ليقرأ لهم فصولاً مـن الكتـب الصفراء على شعاع مصباح ريفي باهت، أو علـى ضـوء القمر في بعض الأحايين.

و"الشيخ عبد التواب" رجل رضي النفس. غير أنه لم يعد بعد رضيًا! وعلى أي حال، فقد أقبل على القرية في ذلك العام على غير عادته، قبل أن ينضج القمح في الحقول، وعندما هبط أرضه الحبيبة، لم يكن أحد في انتظاره، ولم تهمس في أذنيه أصداء أناشيد الفلاحات والأطفال الصغار الذين يغنون على الرغم من كل شيء؛ وإنما قابلته أصوات حزينة نادبة كانت تملأ الأفق في كل مساء، وقالت له إحدى عجائز القرية كلامًا قليلاً، فمشى "الشيخ عبد التواب"، بين تلالٍ سوداء من حطام بيوت عرفها، وشرب فيها القهوة طويلاً، وداعب فيها الأطفال والنساء والرجال. حتى إذا انتهى إلى القبور التي تشرف على القرية من بعيد، سالت دموعه في صمت، وكأنما هو ماء قلبه الذي كان يصعد إلى العين!

ثم عاد الشيخ عبد التواب من القبور. لم يكلم أحدًا طوال الطريق، ولم ينظر إلى "كتاب القرية"، الذي احترق. ولم يستطع أن يلتفت إلى المسجد الذي رن بمواعظه. ولكنه عندما تعثر بأنقاض المسجد أفلت أنينه المروع... ثم مضى،

حتى انتهى إلى بيت العمدة الذي لم يبق منه غير فضاء، وحجرة متهدمة يطل منها خشب محترق كعروق الفحم!

وأمام بيت العمدة، جلس أهل القرية في الفضاء الواسع، ينتظرون فضاء ينزل من السماء، ويبحثون عن كلمات تقيم بينهم الحديث..

وحاول العمدة أن يقول شيئًا، ولكن كل رجل كان يجد صوته غريبًا على أذنيه.. وأخيرًا قال العمدة، وكأنه يحزم كل شجاعته ليتكلم: "يا شيخ عبد التواب!".

ولم ينظر الشيخ عبد التواب إلى العمدة، ولم ينظر العمدة "إلى الشيخ عبد التواب"،.. وفي الحق إن أحدًا في القرية لم يكن يستطيع أن ينظر في وجه أخيه في تلك الأيام...

وعاد العمدة ينظر إلى الفراغ، ثم همس، كأنما يفر من خجل يطارده: "أختك شريفة وماتت شريفة يا شيخ عبد التواب، وحريمك. كلهم أشراف الله يرحمهم ويحسن إليهم، ويحسن إلى موتانا جميعًا!".

وقلب الرجل عينيه التائهتين في الرماد الذي بقي أمامه من دور القرية، وتمتم: "شريفة؟ أشراف يا حضرة العمدة؟" وأخيرًا وقعت عينه على عين العمدة، والتقطت النظرات

الحائرة كثيرًا من النظرات الجزعة. ومرت لحظـــة مفرغـــة صماء، ثم انهمرت الدموع!

وقال العمدة وهو يتنهد ويقلب رأسه ويديه: "العوض على الله". كان العمدة يعلم جيـــدًا كيـــف ماتـــت أخـــت الشـــيخ عبد التواب، وكيف مات كثير من نســـاء القريـــة، وأن لـــه لامرأة ما زالت تعيش، وليتها ماتت كابنتها، وابنهـــا، فإنهـــا لتشد شعرها طول الليل، وتصرخ، وتدق صدرها بالأحجـــار التي بقيت من حطام البيوت.

و"الشيخ عبد التواب" لا يكاد يرى أمامه أحدًا من شـــباب القرية الصاخبين، الذين تعودوا أن يتلقوا بالرضا الضـــاحك كلماته اللاذعة المؤنبة، وصـــفعاته فـــي بعـــض الأحـــايين. ولا أحد على الإطلاق من شيوخ القرية الذين كانوا يملأونها بالحكمة الباسمة. لا شيء غير بقايا ذيول ودموع وحكام.

لقد عرف كيف تتساقط حياة الناس في القاهرة حياة بعـــد حياة، كأوراق شجرة يهزها مارد مجنون، غير أنهـــا كانـــت كالأشجار المقدسة تعمق في الأرض، وترفع إلـــى الســـماء؛ الأوراق تسقط، فتورق الشجرة من جديد!..

لقد رأى فظائع هائلة في القاهرة، ولكن هذا الذي حدث في قريته لم يسمع به الشيخ من قبل، ولم يقرأ مثله في كل كتبه الصفراء.

وكانت القرية تقوم بدورها المقسوم في الثورة الكبرى.. وفجأة وفي ظلمات الليل انقض مائتان من الجنود الحمر مدججين بالسلاح، والذئاب الجائعة تنقض في الظلمات.

واقتحمت القوة بيت العمدة، وأعلن رئيسها على لسان ترجمان من الذين رعتهم أرض مصر، وأطعمتهم من جوع؛ أعلن أنه أقبل ليفتش عن السلاح.. فقط ليفتش عن السلاح!

ووزع الجنود على بيت العمدة وعلى بيوت القرية. غير أن الجنود داهموا خدور النساء يفتشون هناك عن السلاح، وفي الخدور اغتصبوا ما استطاعوا من حلي النساء.. وانتهكوا ما استطاعوا من أعراض النساء. ولم يجدوا سلاحًا في القرية كلها، ولكنهم وجدوا رجالاً غضابًا يزودونهم عن النساء بالدم في بعض الأحايين!

فأصدر رئيس القوة أمره إلى أهل القرية أن يتركوا الدور جميعًا إلى الخلاء ليمروا أمامه فردًا فردًا، وليشرف بنفسه على إجراءات تفتيش كل منهم.

وتحت قرع السياط، وطعنات "السنكي"، ودوي الرصاص؛ امتدت إلى خارج القرية خيوط بشرية مترنحة، ذاهلة من الرجال والنساء والأطفال، كان الجنود يفتشون كل رجل، ويصفعون هذا الفتى بلا مناسبة، ثم يركلون ذلك الشيخ فيتهاوى على الأرض وهم يتضاحكون!

أما النساء!. أي ذكريات.. إن المسبحة لتسقط من يد الشيخ عبد التواب وهو جالس في صمته، فيذكر هذا الذي حدث بالقرية منذ أسابيع. كان الجنود يمزقون أثواب النساء بحد "السنكي".. وبين طيات الأجساد المصرية العارية كانوا يفتشون عن السلاح، وهم يعبثون بكل كنوز الجسد الأنثوي!.. ولقد تروق إحداهن لجندي فيغتصبها بين رنين الضحكات والتصفيق.. وتحت أنظار الآباء والأزواج والإخوة والأبناء..!

فإذا امتنعت إحداهن قتلت.. وإذا استغاثت قتلت.. وإذا انقض رجل للذود عنها فما أسرع ما كان الرصاص يلقيه على الأرض!...

وفي تلك الليلة قُتل أطفال كثيرون لمجرد أنهم تشبثوا بأمهاتهم.. وما أكثر ما قتل من نساء ورجال وعذارى صغيرات!

وعندما تعب الجنود من الاغتصاب والضحك والدماء، طلب منهم رئيس القوة أن ينصرفوا، فقال أحدهم: "لماذا لا نشاهد منظر اللهب في هذا الليل الجميل؟!". وطرب القائد للفكرة.. فأمر جنوده بإضرام النار في القرية.. ثم وقفوا من بعيد يتلهون بمنظر انعكاس اللهب على الليل الذي كان يوغل في صدور الناس بالصراخ والروع والنكير!.

وعندما أرسل الفجر أشعته الدامية، انسحب الجنود.. وتركوا وراءهم بقايا رماد يختلط فيه الدم بالجمرات!

وانحنى "الشيخ عبد التواب" يلتقط مسبحته من الأرض.. ومسحها وهو يقبل في يده بقايا التراب! إنه ليرى الساعة تلك الوجوه النضرة التي كانت تسقط من حوله في شوارع القاهرة تحت وابل الرصاص، ليختلط منها الدم بالأرض التي مشت عليها طويلاً، ولكنه ينظر إلى قريته فيرى دوامة مخيفة من اللهب والدخان، يقف عليها جنود حمر غلاظ

يرمون فيها كل من أحبهم ذات يوم.. ليبقى هو من بعدهم وحيدًا كأنما فقد الحياة نفسها!

***

وثقلت الجلسة الصامتة على نفس العمدة، فنادى: "ياشيخ حسن!". كأنما كان يريد أن يغري مقرئ القرية الكفيف بالشيخ عبد التواب ليدخلا في مناقشة ضاحكة، كما تعودت القرية أن تشهد في الأيام الجميلة الذاهبة، ولكن أحدًا لم يجب، وأجهش صوت من أقصى المكان في عتاب يحمل العزاء: "يا حضرة العمدة!". وتمتم العمدة: "العوض على الله؟... يا أهل الله، الظالم له يوم! الله ينتقم منه!"

وانفجر الشيخ عبد التواب صائحًا بكل أحزانه التي تختلط فيها الثورة بالجحود: "الله ينتقم؟ ! كيف يا حضرة العمدة؟! قل لي! .. يا شيخ اسكت؟.. إنما من أنفسكم سلط عليكم!.. الله ينتقم منا.. منا!"

كان الشيخ "عبد التواب" في انفجاره يتذكر ما شاهده هو في القاهرة، ولكن أهل القرية المحزونين لم يفهموا، ومدوا رءوسهم في حيرة متسائلة، وفغرت الأفواه.

وكما تعود الشيخ عبد التواب أن يشــرح للقريــة، أخــذ يتحدث عن مظاهرة القاهرة، وكيف يسخر الإنجليز الجنــدي المصري لقتل أخاه الذي يطالــب بحريتــه. وكيــف يغــدق الإنجليز على ضابط مصري يشد الثوار إلى ذيــل حصــانه ويجري بالحصان والضــحية وراءه تتخــبط علــى الأرض وتصطدم بسنابك الخيل، حتى تموت!.. وهــو ســعيد بهــذا كأسعد ما يكون بكل عمق شريف، وهنــا وقــف الفلاحــون صارخين: "آه، آه!؟"

وسكت "الشيخ عبد التواب"

من قبل كان "الشيخ عبد التواب" يضرب من أجل حيــاة أفضل، أما اليوم فالحياة عنده كالموت والموت عنده كالحياة، ولكنه قبل أن يموت يجب أن يثأر من الذين جعلوه يفقد طعم الحياة، إنه يريد أن تذكر هذه القرية أن الشيخ عبد التواب قد ثأر لها.

ولكن معركته ليست هنا في القرية!..

وقام الشيخ عبد التواب فجأة، وهو يقول: "أنــا راجــع!"، وسأله الفلاحون أتراه يعود إلى الضابط الذي ربط الثوار في ذيل حصانه؟ فقال عابسًا: "نعم!". وعبثًا حاولوا أن يمســكوه

في القرية، فقد مضى وأوصاهم أن يضربوا من جديد، ولو أُحرقت القرية إلى آخر شيء حي!

ويصل الشيخ عبد التواب مسرعًا، ومن حوله الرجال يصيحون: "يحيا العدل!"

وهكذا انطلقت الأصوات مجتمعة لأول مرة منذ الحادث، كأنها وجدت نفسها من جديد.

وعندما كان الشيخ عبد التواب يقبل آخر رجل من مودعيه، سأله الرجل: "متى ترجع بالسلامة؟". ولم يجب الشيخ عبد التواب، وانحدرت من عينه دمعة حجبت عنه مناظر قريته الحبيبة؟

ولم يعد الشيخ عبد التواب" إلى القرية، ولم يذق السلامة منذ مضى إلى القاهرة! وإن القاهرة لتذكر أنه صنع أشياء عجيبة في الثورة، وأنقذ كثيرًا من المصريين من أيدي الإنجليز، وثأر لكثير من الأرواح.

أما القرية فلن تنسى أبدًا أنها رغم مضي ثلاثين عامًا؛ ما زالت تذكر حين تبكي شهداءها الكثيرين، ما زالت تذكر أن الشيخ عبد التواب قتل تحت سنابك خيل ضابط مصري،

نعم، مصري مع الأسف، وأنه ظل يهتف، والحصان يجـــره على الأرض، ودمه ينزف: "تحيا مصر!".